المكتبة الثقافية
٤٣٨

توفيق الحكيم

من العدالة إلى التعادلية

د. محمد الجوادى



١٩٨٨

أ

الاخراج الفنى : ماهر الشمسى

اهـــــداء

الى العـــلامة الأســـتاذ الدكتور
حســـين فـــوزى
الذى وصـــل ما بينى وبين توفيق الحكيم

مقدمة

بعد ساعات من وفاة توفيق الحكيم عليه رحمة الله بدات كتابة هذه الفصول ، وبعد حوالى اسبوعين كنت قد انتهيت منها اثنا عشر فصلا .. تغلب عليها الانطباعات الشخصية والدفقات الشعورية .

ثم رأيت بعد ذلك أن اعيد كتابة ما كتبت على النحو الذى انتهجته دوما فى كتابة التراجم (فى كتبى الثمانية التى نشرتها فى هذا الأدب) ... وهكذا اصبح هذا الكتاب أربعة ابواب تلقى بعض الأضواء على بعض الجوانب من حياة رجل عظيم .

وليس بمقدورى أن ازعم على اية صورة من الصور أن بابا كالباب الرابع أو الثالث او حتى الأول والثانى بقادر على الالمام بموضوع عنوان الباب .. انما هى لمحات سريعة فى مجال الحديث عن حياة توفيق الحكيم (فى الباب الأول) أو فكره (فى الباب الثانى) أو ريادته فى الأدب (فى الباب الثالث) أو آثاره الأدبية (فى الباب الرابع) .

كأنما كان حرصى على وضع هذه الاسهامات المتواضعة تحت هذه العناوين الكبيرة شبيها تماما بما يفعل المدخرون الصغار الذين ينوعون من مدخراتهم النقدية فاذا هم فى البنوك وقد توزعت ثروتهم القليلة على حسابات مختلفة العملة من الدولار الى المارك الى الاسترلينى بينما هى كميات متواضعة من كل .

وفى توفيق الحكيم وحياته وفكره وأدبه وآثاره آفاق كثيرة من الذهب الخالص .. ومن الذهب الذى أعاد تشكيله سبائك وقلادات يستمتع بها قارئوه كما يفخر بها مواطنوه .

هذا وباش التوفيق ؟

دكتور محمد الجوادى

مدرس القلب المساعد

كلية الطب ــ جامعة الزقازيق

القاهرة ت ٣٤٨٣٤٨١

الباب الأول

حياة توفيق الحكيم

حياة توفيق الحكيم

متى ولد توفيق الحكيم :

كان تاريخ ميلاد توفيق الحكيم المكتوب دوما هو عام ١٩٠٢ ، وهو التاريخ المسجل فى الطبعة الأولى من الكتاب الخاص بمجمع اللغة العربية وأعضائه (وهى الطبعة التى صدرت فى العيد الثلاثينى للمجمع فى منتصف الستينيات) .. ولكن ، فى نهاية السبعينيات أصر توفيق الحكيم على أن يعلن للناس أو تاريخ ميلاده الحقيقى قبل هذا بأربع سنوات وبالتحديد فى ١٨٩٨ .. ومن يومها أخذت كل الأوراق تتغير لتضيف الى الحكيم أربعة أعوام دفعة واحد .. وهكذا بدلا من أن يزيد عمر الحكيم عاما واحدا فى سنة زاد فى هذه السنة خمسة أعوام ..

لماذا لم يكتشف الحكيم هذا التاريخ الا مؤخرا ؟؟
هل كان لذلك علاقة برغبته فى الاسراع بالرحيل فهو يزيد فى السن بحيث تزداد احتمالات رحيله نظريا ؟؟

هل كان توفيق الحكيم يريد أن ينتمى الى مواليد القرن السابق ولو فى آخره بدلا من أن يكون من مواليد هذا القرن ؟

هذا هو السؤال المهم الذى قد يكون مجالا لبحث علمى حول الصورة التى كان توفيق الحكيم يحب أن تطبع تصور الناس عنه .. بحث منهجى يمتد الى ثنايا مؤلفاته والى كل ما بين سطور كتاباته .

ستون عاما من الانتاج الفكرى :

بدأ الحكيم انتاجه الفكرى منذ حوالى سنة ١٩١٨ ثم بدأ انتاجه الفكرى مرة ثانية وبتواصل منذ عام ١٩٣٣ ، أى بعد ١٥ عاما من البداية الأولى .. ولهذا فقد كنت ولازلت أتأمل النص الجميل الذى جاء فى بيان رئاسة الجمهورية الذى نعى الرئيس حسنى مبارك توفيق الحكيم الى أمته فقال أنه أثرى حياتها طيلة ستين عاما .. فلو أننا حسبنا الاثراء منذ ١٩١٨ لأصبح الزمن سبعين عاما ، ولو أننا حسبنا الاثراء منذ ١٩٣٣ لأصبح الزمن خمسا وخمسين عاما .. ولكن بيان الرئاسة

كان أقرب الى الحقيقة وان لم يكن هو الحقيقة .. تماما كالمتوسط الحسابى .

توفيق الحكيم فى ضمير بلاده :

فى ذاكرة الثقافة المصرية ان الرئيس جمال عبد الناصر عندما افتتح مبنى الأهرام الجديد الذى قام على بنائه الأستاذ محمد حسنين هيكل التقى مع نخبة من المفكرين المصريين الذين كانوا يكتبون للأهرام .

كان فيهم توفيق الحكيم بالطبع ، والدكتور حسين فوزى ، ونجيب محفوظ ، والدكتورة عائشة عبد الرحمن والدكتور لويس عوض .. وعلى حين اختص الرئيس عبد الناصر كلا من هؤلاء بالاشادة بالروح السائدة فى كتاباته فانه خص توفيق الحكيم بتقدير اكبر .. فقد قال للويس عوض انه يعبر عن مصر الفرعونية ، ولبنت الشاطىء انها تعبر عن مصر الاسلامية ، ولحسين فوزى انه يعبر عن مصر الأوربية بكل تطلعاتها و .. أما توفيق الحكيم فانه يعبر عن مصر التى يعرفها عبد الناصر ..

ازمة الأديب والوزير :

ولم يكن هذا هو التقدير الوحيد الذى اضافه عبد الناصر الى توفيق الحكيم ، فمن قبل هذا كان عبد الناصر قد صرح بان أفكار توفيق الحكيم كانت وراء

مراحل متعددة من الفكر الذى صنع ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .. وانه (اى عبد الناصر) وزملاءه قد اهتدوا بأفكار توفيق الحكيم .. التى دفعتهم منذ البداية الى هذا التطلع المحسوب من اجل مصلحة بلادهم .

المظهر الثالث كان انعام الرئيس عبد الناصر بأعظم الأوسمة على توفيق الحكيم حيث منحه ما لا يمنح الا للرؤساء .

المظهر الرابع — وربما كان أسبق تاريخا — هو ما حدث فى اول عهد الثورة حين أعدت كشوف التطهير ، وكانت دار الكتب التى يتولى توفيق الحكيم منصب المدير فيها تابعة لوزارة المعارف ، واذا بالكشوف التى تضم اسماء المقترح اخراجهم من وظائفهم تتضمن اسم توفيق الحكيم ، ويعرض الأستاذ اسماعيل القبانى وزير المعارف الأمر على مجلس الوزراء معقبا بأن توفيق الحكيم لا يفعل شيئا يذكر فى هذه الدار ، ولا يكاد يحرك ورقة عن موضعها ، مع ما لهذه المؤسسة من اهمية كبرى .. فاذا بعبد الناصر نفسه يعارض قائلا ما معناه :

وماذا تقول عنا الدول فى الخارج اذا كان هذا هو سلوكنا مع مثل هذا الرجل ؟

وينقل فتحى رضوان الحوار الى خارج المجلس ، وتكون أزمة ربما كانت تدعو الى استقالة الوزير ولكن

الرئيس يطيب خاطره وكذلك يفعل فتحى رضوان الذى أفشى الحوار .. وفيما بعد علق أحد النقاد على هـذه الواقعة بأن عبد الناصر آثر الأديب على الوزير .

الحكيم وأنور السادات :

على نفس الخط تقريبا : ـ كان أنور السـادات يمضى فى تكريم توفيق الحكيم على الرغم من ان توفيق الحكيم تزعم فى ١٩٧٢ حركة الكتاب والصحفيين المطالبين بتغيير الأوضاع من أجل كسر حالة اللاسلم واللاحرب .. ومن أجل عودة الديمقراطية (وان لم تكن الألفاظ يومها بذات الصراحة) .. ولهذا فان أنور السادات كان كثيرا ما يداعب الحكيم فى اللقاءات الرسمية وغير الرسـمية ويدعوه الى الجـلوس الى جـواره .. وفى احـد هـذه اللقاءات ـ وكان خاصـا باتحاد الكتـاب الذى رأسـه توفيق الحكيم ـ اعلن الحكيم إنه سيدفع لأنور السادات اشتراك عضويته فى الاتحاد من ماله الخاص .

الدكتوراة الفخريـة :

وفى السبعينيات اهـدت اكاديمية الفنون برئاسـة رشاد رشدى الدكتوراة الفخريـة الى أربعـة من قمم العطاء الفنى كان الحكيم أولهم (الثلاثة الآخرون هم : يوسف وهبى ، وزكى طليمات ، ومحمد عبد الوهـاب

أطال الله بقاءه) .. فى السبعينات أيضا كرر أنور السادات منح توفيق الحكيم أرفع الأوسمة المصرية .

توفيق الحكيم وهيكل :

وربما كان أكثر الناس تقديرا حقيقيا (من ذلك التقدير الذى يعود بالنفع) للأستاذ توفيق الحكيم هو محمد حسنين هيكل صديقه القريب الى نفسه ، فهيكل صاحب الفضل فى (اكتشاف) توفيق الحكيم فى الستينيات ووضعه فى المكانة الأولى التى تليق به (مع أن طه حسين كان لايزال على قيد الحياة) .. فى (قلعة) الأهرام حيث أصبح توفيق الحكيم عضوا فى مجلس ادارة الأهرام ورئيسا فخريا .. وأصبح له مكتب وصالون فى الدور السادس حيث يلتقى بالصحفيين والكتاب والأساتذة فى مكان مشرف جدا بحيث اصبح الأهرام بالفعل ملتقى ومنتدى للنخبة الرفيعة من هؤلاء .. وقد تعاقب على هذا المنتدى كل أصحاب المكانة الرفيعة فى الفكر المصرى بلا استثناء حيث جاء فى أعقاب الحكيم عدد كبير من كبار الصحفيين والمفكرين المصريين الذين آثروا وظيفة الحكيم هذه ككاتب متفرغ على العمل الصحفى الروتينى ورئاسة التحرير أو رئاسة مجلس الادارة .

صـالون الحـكيم :

وفى السنوات الأخيرة كان هناك فى هـذا الصالون كل من احسان عبد القدوس ، ومصطفى بهجت بدوى ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، واحمد بهاء الدين بعد ان تركوا ارفع المناصب الصحفية .. وكانت هنـاك ايضـا المجموعة القديمـة من المفكرين الذين خلفهم هيـكل فى الأهرام بدءا من الصديق القديم لتوفيق الحكيم : الدكتور حسـين فـوزى والدكتور زكى نجيب محمـود ونجيب محفوظ وبنت الشاطئ ويوسف جوهر وصلاح طاهر .. ثم كان هنـاك أيضا الجيل (الصاعد الى الشيخوخة) متمثلا فى ثروت أباظة ، ويوسف ادريس بالاضافة الى أقطاب العمل الصحفى فى الأهرام : كمال الملاخ ، واحمد بهجت ، وممدوح طه ، وصلاح منتصر ، وصلاح جلال .. الخ .

وفى مكتب توفيق الحكيم اتيح لى أن اعرف هؤلاء وان ارى مدى علاقتهم بتوفيق الحكيم .

الأهرام فى حياة توفيق الحكيم :

وربما لو لم يكن هيكل قد هيأ لتوفيق الحكيم هذه المكانة فى الأهرام لكان الرجل العظيم يعانى من مصـاعب كثيرة فى حياته ، حين كان عليه أن يبحث عن مكان تحت الشـمس .. وبخاصـة انه بحـكم تساميه الرفيـع

وشخصيته المتواضعة لم يكن صاحب محراب مثل العقاد .. ولا صاحب مكانة اكاديمية مثل طه حسين .. وربما كان من الواجب من باب ذكر الفضل لذويه ان نكرر ان هيكل هو الذى (اكتشف) لمصر الستينيات توفيق الحكيم .

النجم الذى يحب :

مع هذا لم يكن حسنين هيكل هو صاحب الفضل الأسبق فى هذا المقام فمن قبل حظى توفيق الحكيم بكثير من التقدير الذى حماه من أزمات شديدة ... وربما كان توفيق الحكيم أبرز نموذج للنجم الذى يحب ، فهو ودود عطوف متواضع بلا أدنى شك ، وليس من الصعب على اى انسان (من طبقة الحاكمين) أن يجد قدرا هائلا من الحب فى نفسه لتوفيق الحكيم .. الذى لم يكن صاحب مرض من امراض الغرور أو الحقد أو الكبر .. ربما كان الحكيم ابرز مثل للنجاة المطلقة من هذه الأخلاق القاسية .. ولهذا كان الحكيم يحظى بعطف وتقدير كثيرين من زعماء ما قبل الثورة بدءا من هدى شعراوى التى كانت حريصة كل الحرص على تزويج توفيق الحكيم ، ومرورا بهيكل زميله فى الأدب الذى حرص على حمايته من الفصل من وظيفته الحكومية فى الثلاثينات .. ومحمد محمود باشا رئيس الوزراء الذى وقف الى جواره فى محنة التحقيق بسبب مقاله عن الديمقراطية .

اطمئنـان الثقـة :

وعلى النقيض من كثيرين جـدا من مثقفينا الذين كانوا ينتظرون دائمـا أن يجـدوا فى الرئاسـات من يفهمهم فقد كان الحكيم (على الرغم من علاقته القوية بهيكل) اقل الناس خوفا من التغيرات فى رئاسات مجلس إدارة وتحرير جريدة الأهرام..حتى أصبح رئيس مجلس الادارة واحدا من اهل الادارة لا الصحافة .. فاذا به صديق حميم للحكيم ، وكان الحكيم رحمه الله يقول عنه انه من أكثر الناس فهما وتفهما وتقديرا .. ربما لأنه تاجر !! .. لم يكن الحـكيم ابدا من الذين اسـتهوتهم الشعارات أو التصنيفات فى أى مجال ..

التقـدير الرسـمى :

على الصعيد الرسمى نال توفيق الحكيم تقديرا لا يقل عن التقدير الذى لقيه طه حسين ، ربما لم يعين توفيق الحكيم وزيرا للمعارف ولا للثقافة ولا كان مثل هذا المنصب فى خياله أو حساباته .. ولكنه كان سفيرا على أرفع مسـتوى لأنه كان المنـدوب الدائم لمصر فى اليونسكو بباريس وهو المنصب الذى شـغله بعد ذلك عدد من أبرز وجوهنا السياسية منهم الدكتور/ مصطفى كمال حلمى ... وفى هـذا المنصـب عـاود توفيـق الحكيم اتصاله بالحياة الفرنسية وراى الصورة الجديدة

لها بعد الحرب العالمية الثانية عن كثب ، وعن معايشة واقعية .. واختلط بالأفكار والمفكرين الجدد ، وظهر كل هـذا التأثير فى أدبه الجديد الذى لم يصبح مجرد تكرار لثروته القديمة ، وانما أصبح رحيقـا فيـه التجديد والحداثة والمعاصرة .

التقدير العلمى والفنى :

كان توفيق الحكيم يتمتع بعضـوية كل الهيئـات المحترمة التى قد يصل اليها كل من هم فى مكانته ، فحتى قبل أن ينتقل الى رحمة الله كان توفيق الحكيم ثانى أقدم عضـو فى مجمع الخالدين بالقاهرة (بعد الدكتور مدكور رئيس المجمع) . وهو أقدم الأعضـاء المنتخبين « فقد كان مدكور معينا فى ١٩٤٦ » .. وقد صمم توفيق الحكيم على الاستقالة من المجمع قبل وفاتـه رغم أن عضويته لم تكن تكلفه جهدا كثيرا فقد كان قليل الحضور الى حـد كبير ... ولكنى أذكر — والله على ما أقـول شهيد — انه كان متأثرا أشد التأثر يوم ذهب الى المجمع فى الجلسة التى كان الدكتور زكى نجيب محمود مرشحا فيها لعضـوية المجمع وفشل فى اقناع المجمع بانتخـاب المفكر الكبير ، وقد قابلته فى اثر هـذا الاجتماع وكان متأثرا أشـد التأثر .. ولكنـه لم يكن يصرح بحـكم ما جبل عليـه من رفيع الأخـلاق ، حتى حملتـه بكل ما وسعنى من معلومات واستنتاجات على التصريح .

رجـلة القـانون :

كان الوضع الطبيعى لقانون « عاقل أو متعقل » كالأستاذ توفيق الحكيم أن يواصـل عمله الحـكومى الهادىء فى سـلك القضـاء حتى الوصـول الى درجـة المستشارية التىيختم بها رجال القضاء عملهم أو مجدهم، وفى الحقيقة أن توفيق الحكيم له يكن يمـانع فى هـذا العمل ، ولا فى الاستمرار فى هذا السلك فقد كانت الوظيفة الحكومية كفيلة بأن تكفل له ما يقيم أوده ، وأن تكفل له كذلك الوقت الذى كان يتهيأ للكتابة فيه وللتعبير عن المشاعر أو الأفكار التى يريد الكتابة فيها .

ولكن اصدار الحكيم لمسرحية أهل الكهف أتـاح له الفرصة ليمارس الاصلاح الاجتماعى من خلال الكتابة فى الصحف التى أقبلت على صاحب هذا الأسلوب الجميل والفكر المرتب الاخاذ .

ولهذا أصبح حسين توفيق الحكيم « نجما » رغم انفه ، أو كما تمنى ، وهو لهذا يرشح لوظيفة اخرى متصلة فى جوهرها بالقضـاء والقانون ولكنها فى الوقت نفسه خارج السلك نفسه ، سلك الوقار والتفرغ ، الذى يحـافظ عليه صاحبـه لا لشىء الا ليـكون الانسـان مستشارا .

ويعمل توفيق الحكيم فى وزارة المعـارف مديـرا للتحقيقات ثم فى وزارة الشئون الاجتماعية التى انشئت

لأول مرة ثم يتعاقد (١٩٤٣) مع أخبـار اليوم ويبقى بعيدا عن الحكومة حتى عام واحد وخمسين .

ثم يعمل فى دار الكتب وفى اليونسكو ممثلا لبلاده.. ولكنه أصبح خـارج الهيئـة القضـائية .. هل خسر الحكيم كثيرا .. لا اظن ولكن هل خسرت الهيئة القضائية المصرية .. نعم بكل تأكيد .

قدرة الحكيم على ترك القفص الذهبى :

من اطرف ما يمكن ان احدا من القانونيين بعد توفيق الحكيم لم يستطع الفكاك من (الشرك » القضـائى ليحقق المجد الأدبى .. واصبحت العدالة نفسها مقتنعة بوجود أصحاب الهوايات فى وظائف العدالة حتى النهاية ... ولكن احدا منهم لم يرق إلى مرتبة الحكيم ابدا .

ولكن هـل كان توفيق الحـكيم يصـلح لمرتبـة المستشار؟ وهل كان الرجل قادرا على اصدار احكام فى الجنايات ؟ ــ مع حسه المرهف ؟ ــ او فى القانون المدنى مع كراهيته للشر .. من السهل الحكم بنفى قدرة توفيق الحكيم على اللمعان فى هـذا المجال ، ولكن الذين يقرأون التاريخ المصرى الحديث كله سيجدون إن تمام النمو فى شخصـية القـادة المفكرين بدءا من سـعد زغـلول وعبد العزيز فهمى ... وحتى حفنى ناصف لم يتحقق الا فى احكامهم التى كتبوها حين لم يكن هنـاك مجـال

للأدب الفنى كالذى فتحه توفيق الحكيم لنفسه ، وللأدب العربى كله .. وعلى ضـوء هذا يمكن لنا ان نفهم ان توفيق الحكيم قد وصل الى الحكمة فى صـورة ارفع حين اتيح له ان يرسـم هو كل الجو : المتخاصـمين والقصة ، والدفاع وفكره ، والادعاء وفكره ثم بعد هذا برسم دور القضاء وقد لعبه القدر لا القضـاء .. راجع كتاب الأستاذ عبده حسن الزيات « سعد زغلول من اقضيته » ، وتأمل كيف كان سـعد يبذل جهـدا كبيرا للخروج من الوقائع الى الحكمة .. ثم تأمل كيف كان توفيق الحكيم يصوغ الوقائع فى الأدب لا فى ساحة المحاكم ليخرج بالحكمة الى الناس .

الحكيم نموذج للمصلح الجديد :

والفارق اذن بين الموقفين يتمثل تقريبـا — مع الفارق — فى الفرق بين البلاد التى تصنع المواد الأولية والخامات التى تبنى عليها صناعة معقدة .. وبين بـلاد اخرى عندها المصنوعات وقد اصابها بعض العطب فهى ترسم على الورق السبيل الى اصلاح هذه الجزئيات .. واحيانا ما تقوم بهذا الاصلاح .

ربما لم يتح لسعد زغلول وحفنى ناصف وقاسم أمين وعبد العزيز فهمى ذلك القدر من الثقافة والتفاعل مع الحضارة الأوربية كما اتيح لتوفيق الحكيم .

ولكن الذى لاشــك فيه أن توفيق الحــكيم أدى حقوق النعمة التى كانت عليه لمجتمعه .

زمــلاء الحــكيم :

ثم انه يمكن لنا من تأمل زملاء توفيق الحكيم عند تخرجه فى مدرســة الحقوق فى دفعــة ١٩٢٥ أن نرى صورة من صور تصاريف القدر .. فقد ضمت هــذه الدفعــة ستة من مشاهير حياتنــا العامة ربما لم يرق أحدهم « مع كل ما وصلوا اليه من مجد مبكر » الى ما وصل اليه توفيق الحكيم .

ففى هذه الدفعة (١٩٢٥) تخرج مع توفيق الحكيم (وفى سن مبكرة عن الحكيم عليه رحمة الله » ، الأديب الكبير الأســتاذ يحيى حقى ، الذى عمل فى الســلك الدبلوماسى حتى جاء عهد الثورة ، فخرج منه لا لشىء الا لأنه متزوج من أجنبية ، ولم يخرجه من هذا السلك حبه للأدب ولا ممارسته له (كما حدث للحكيم فى السلك القضــائى » ، بل ربما كان الأدب .. هو المتــكأ الذى استند اليه يحيى حقى حين خرج من هذا السلك .

وليس فى هــذا المقام محــل للمقارنة بين توفيق الحكيم ويحيى حقى ، ولاشــك أن يحيى حقى قد حظى فى افئدتنا جميعا بمكانة تدنو من مكانة توفيق الحكيم

ولاشك أن يحيى حقى فى ريادته للقصـــة لا يقل عن توفيق الحكيم فى ريادته للمسرح .

ولكن الذى لاشك فيه أنه اذا كانت الحيـــاة قد ظلمت توفيـــق الحكيم درجـــة فقد ظلمت يحيى حقى درجتين .. وربمـــا كان لاتصـــال الحـــكيم (الدورى) (والمفتوح) وحتى النهاية بالجمهور عن طريق الصحافة ما رفع عنه بعض الظلم الذى حاق بيحيى حقى .

***

وفى هذه الدفعة تخرجواحد من إكبر اقطاب القانون الرسميين طيلة عهد عبد الناصر وأول عهد الســـادات وهو المستشار بدوى حمودة .

وفيها أيضا تخرج واحد من أكبر اقطاب الاقتصاد ، محافظ البنك المركزى الأشهر عبد الحكيم الرفاعى الذى كان — امضاؤه ولازال دليـــلا على عشرات الجنيهات والعملات التى كانت لها قيمة .

صـــديقان :

وبالاضافة الى هؤلاء الأربعة فقد تخرج فى هـــذه الدفعة اثنان من الذين وصـــلوا الى منصب الوزارة وكانا هما الاثنين — ربمـــا من باب الصـــدفة اقرب أصـــدقاء توفيق الحكيم .

إقأما الثانى فهو الأستاذ ابراهيم فرج السكرتير العام لحزب الوفد الجديد ، الذى عمل فى آخر العهد السابق وزيرا للشئون البلدية والقروية .

وأما أولهما فهو الصديق الصدوق لتوفيق الحكيم ، الذى سبقه الى الدار الآخرة ، منذ ثلاثين عاما الدكتور حلمى بهجت بدوى وربما لا يكون هذا من باب الجديد على قراء توفيق الحكيم .. الذين يعرفون من قراءة ادب الحكيم كم كان اديبنا الكبير يكن من تقدير واعجاب بزميل دراسته حلمى بهجت بدوى الى الحد الذى يجعله يروى فى معرض حديثه عن نجاحه فى الليسانس إنه مدين بالفضل لحلمى بهجت بدوى الذى كان يظل ساهرا فيجد الحكيم نفسه يوبخ نفسه الأمارة بالنوم !! .. ثم ان هذين الصديقين قد قضيا حياة الشباب معا حتى اذا تزوج حلمى بهجت بدوى قبل توفيق الحكيم وترك صديقه الى عش الزوجية لم تكن الهدية الا النسخة الخطية من أولى مؤلفات توفيق الحكم ثم ان الله سبحانه وتعالى يهيىء من مجريات الأمور فى السبعينات ما يجعل الشقيق الأصغر لحلمى بهجت بدوى يأتى بعد رئاسة مجلس دار التحرير ليكون كاتبا متفرغا فى مكتب مجاور لمكتب توفيق الحكيم ، يطل عليه فى الصباح ، فيتذكر فى شيخوخته أجمل أيام شبابه .

الحنين الى العـدالة :

ثم ان توفيق الحكيم كان معتزا بشـدة بانتمائـه القضـائى ، ولم يكن رغم تصـويره (الأدبى والفنى) للسلبيات التى فى المهنـة وممارسـتها من الذين فرحوا بالخلاص منها ولا الذين سعوا الى ذلك ، وربما كان يسعد توفيق الحكيم لو ظل فى هذه المناصب ، ولكن مجريات الأمور لم تكن لتسمح له بالتعبير عن مثل هـذه الأمانى التى لم تكن لتتحقق لأديب مرموق ظهر اسـمه بين أهل هـذا الوسط .. ولعل مما يعيننا على فهم المكانة التى كان فيها توفيق الحكيم فى زمانه والصعوبات التى نشأت عن هـذه المكانة لعل مما يعيننا على هذا ان نقرأ الفقرات التى كتبها زكى عبد القـادر فى كتابـه « اقدام على الطريق » حين جوزى بلا سبب ، فلما سأل رئيسه جادله بالباطل ثم انتهى معه الى انه « ليس له شكل الموظفين » .

وربما اتاح مرور الزمن للقانونيين فى الأجيال التالية لتوفيق الحكيم أن يكونوا إقرب الى الصـورة التى كان يمكن أن يكون توفيـق الحـكيم خير نموذج لها ولكن للأسف فان هذه الفرصة جاءت متأخرة وجاءت فى جيل ليس فيه توفيق الحكيم !!

صفاتــه الشخصــية :

كان الحكيم منظما فى حياته ولكنه لم يكن منظما جدا ، أى انه لم يكن من الذين يجبرون أنفسهم على نظم كثيرة ، وكان الحكيم حريصـــا دائما على مظهره الأنيق « الرسمى » من دون تكلف ، واذكر انه كان دائما حريصا على ارتداء رباط العنق ، ولكن « رباط العنق » الذى كان يرتديه لم يكن يختلف كثيرا عن الربــاط المبســط الذى يلبسه تلامذة المدارس الابتدائية ، بحيث يمكنه أن يفكه أو أن يرتديه فى لحظــة واحدة بمجرد فك الاستك .

وكان الحكيم يقضى نهاره فى الأهرام حتى آتــاه المرض فاختصر أيام حضوره حتى أصبحت يوما واحدا « هو الخميس » كل اسبوع ثم كل اسبوعين ..

وكان يبقى فى الأهــرام حتى حــوالى الســـاعة الثانيــة ..

واذكر انه فى اعقاب معــاهدة الســلام ، وحرص الاسرائيليين فى الاكثار من لقاءاتهم بقادة الفكر والأدب المصريين ، كان قد ضرب موعدا لأحد هؤلاء عن طريق المركز الاعلامى فى هيئة الاستعلامات ، ولم يأت الضيف فى موعده المحدد ، وكان قبيل الساعة الثانية ! وخشى الحكيم أن يأتى الضيف بعد الساعة الثانية ويستبقيه الى وقت متأخر ، فاتصل بجراج الأهرام يطلب السيارة التى ستقوم بتوصيله ، وخرج الى المصعد ، ثم خطرت له فكرة

(عندما طال به الوقوف فى انتظار المصعد » .. خشى الحكيم ان يفتح باب المصعد الذى ينتظره فيكون فيه الضيف الاسرائيلى فيضطر للعودة معه الى مكتبه .

واذا هو مصمم على أن يتحرك من هـذا الطـابق الى طابق آخر (وليكن الخامس) لينتظر فيه المصعد .

الحـكيم والتليفزيـون :

كان الحكيم فى سنواته الأخيرة يظهر اعجابا بقـدرة التليفزيون على الاستيلاء على وقت الناس وعقولهم وكان منتبها بالطبع الى الخطورة الكامنة فى هذا الأمر ، ولكنه كان مع ذلك يدرك ان الكون على ابواب حضارة جديدة يصعب على أمثاله من أصحاب الزمن المـاضى الحكم فيها على وجه الصواب والخطـأ .

الحكيم وكرم القـدم :

لم يكن الحكيم يعجب من شىء فى حيـاة المصريين اكثر من اندهاشه لمدى الاهتمام والتقدير الذى يمنحه هذا الشعب لكرة القدم ..

وكان دائما ما يشغل باله باحصاء دخول هؤلاء اللاعبين مقارنا بحاله هو (الذى لم يقبض فى حياته مبلغا كبيرا دفعة واحدة الا خمسة آلاف جنيه فى فيلم رصاصة فى القلب) .

وحاول الحكيم فى سنواته الأخيرة أن يستكشف فى لعبة كرة القدم شيئا من الفن أو القوة فلم ينجح فى هذا أبدا وساءه بالطبع هـذا الضجيج الذى كان يراه فى التليفزيون ، كصـدى للضجيج الذى فى الملاعب .. ولكنه مع كل هذا كان يتحفظ فى ابداء مشاعره فى هذه النقطة بالذات حتى لا يجرح جماهير شعبه ، ولا نجوم لعبة مفضلة عند هذا الجمهور .

أسرار توفيق الحكيم :

لم يكن لتوفيق الحكيم كثير من الأسرار ولا قليل ، حتى حديثه مع العصا والبيريه والحمار وهو حديث مع نفسه (على اختلاف مستوياتها) كان معلنا للنـاس ، ولكن هـذا لا يعنى أن توفيق الحكيم كان يطلع الناس على كل ما فى حياته فى حينه وانما يعنى أن (الفنان » فى توفيق الحكيم تغلب على (الانسان) ولو بعد حين .. حتى اصبحت حياة توفيق الحكيم كتابا مفتوحا أمـام الناس .

وبما يعن لنا هنا أن نستطرد الى القول بأن توفيق الحكيم جعل الناس يقرأون حياته كلها .. ولم يبخل عليهم فى هذا الصدد .. وسوف يجد القراء أننا قلنا فى موضع آخر أنه كان بين إقرانه أكثر الأدبـاء ذكاء فى توزيـع حياته على أكثر من موضـع ، وأكثر من كتـاب ، ولم (يضيعها) فى كتاب واحد .

ربما كان الجانب الآخر لهذه الحقيقة هو ان توفيق الحكيم روى حياته كلها (تقريبا » ولم يقتصر على طفولته أو نشأته فحسب . أو على تجربة معينة فيها .

اصدقاء توفيق الحكيم :

كان أكثر اصـــدقاء توفيـــق الحـكيم من طوائف متعددة : فعنده مهندســـون واطبـــاء وقانونيون ووزراء ورجال سياسة وهو متبسط معهم جميعا .. « وكان عنده صحفيون هو متوجس دائما منهم »..وكان الحكيم يسعد كثيرا بالنقاد الأكاديميين الذين يكون فى مقدورهم الوصـــول بكتاباتهم ألى الجمهور .. وكان من هـــذا الطراز الدكتور هيكل وزير الثقافـــة السابق والدكتور عز الدين اسماعيل والدكتور القط ... الخ .

الحـــكيم والأطبـــاء :

كان الحـــكيم يقـــدر الأطبـــاء ، وكان يعتز بأن على ابراهيم باشا اجرى له عملية الزائدة .. وقال له يومها انه لن يأخذ منه اجرا لأنه يخاف أقلام الكتاب .. وكان ســـعيدا جدا بصداقته لعدد من الأطباء المفكرين والأدباء فقد كان حسين فوزى صـــديق عمره ، وكان كامل حسين مبعث اعتزازه بصـــداقة قوية ، وكتب عنه ابراهيم ناجى دراسة نقدية رائعة ، وكان الدكتور ادهم أبو رجب من اصدقائه المقربين الى نفسه .

ثم كانت له صداقة قوية مع الأطباء الذين تولوا علاجه فى السنوات الأخيرة .. وكانت لتوفيق الحكيم آراء طبية ربما بدت ساذجة .. ولكن لها من الواقع ما يؤيدها ، وربما عثرنا فى المستقبل على التفسيرات العلمية لها .

ولعل ابرز هذه الآراء ما كان يكرره لى دوما من ان الرجل اذا اجرى عملية استئصال البروستاتا فانه يصير الى الفناء « أو فى النازل » .. هكذا أثبتت له التجربة فيما سمع من التاريخ المرضى لأصدقاء او معارف قبل أن ينتقلوا الى رحمة الله .. أو يفقدوا توهج الفكر والشعور ..

هل كان للحكيم اعداء ؟

ربما يظن البعض بعد هذا الفيض المتصل من الكلمات التى يقرأونها فى الصحف أن توفيق الحكيم كان ولم يكن له أعداء ، الا أعداؤه السياسيون من حملة الأقمصة أو الأقنعة .. ولكن الحقيقة أن هناك من بين أدبائنا المشهورين من كانوا يتمنون زوال الحكيم أو غيابه عن المسرح مبكرا .

فقد سبقهم وعرف الناس أنه سبقهم .. ولهذا لم يكن من السهل عليهم أن يدعوا مثلا .. انهم رواد المسرح مهما يكن لهم فيه من باع وشهرة على أساس

أو على غير اساس ، وقد فعل هـذا فى آداب، كثيرة .. ربما (أعطى) وجود الحكيم المسرح حماية من الافتئات عليه كما حدث للقصة القصيرة وللرواية ولأشكال اخرى من الأدب .

القدرة على الاستماع :

احتفظ الحكيم حتى أخريات أيامه بالقدرة على الاستماع ، وكان رحمه الله قد اصاب من نعمة السمع ما حفظ عليه هـذه النعمة الى أخريات حياته .. وربما كان هذا التوافق صورة أخرى من صور تميز الحكيم على أقرانه جميعا .. فقد كان الحكيم متواضعا وصبورا ورغم أنه كان يعلم تمام العلم أن الاحتمال الغالب هو أنه لن يسمع من محدثه جديدا لا يعلمه ولا طريفا يثير فكره فقد استطاع الحكيم أن يوطن نفسه على أن يسمع وأن يسمع كثيرا ، وقد يعجب المرء من هـذا الخلق اذا لم يدرك حقيقة أن الحكيم كان يحب دوما أن يعرف ماذا يشغل بال الناس .. وكيف يتكلم الناس .. ولعل هذا هو السر الذى لم يجعل الحكيم ينفصل أبدا عن مجتمعه ولا عن جمهوره طيلة ستين عاما أو يزيد .

***

توفيق الحكيم والرسميات :

لم يكن الحكيم عازفـا عن الاجتماعات الرسـمية أو الثقافية عزوف يأس كما هو متوقـع واذكر انه كان

يدعو لجنة من لجان المجلس الأعلى للثقافة الى الاجتماع فى مكتبه فى السنوات الأخيرة ، ويأتى الأعضاء فى ضيافة الحكيم .. ولكن الحكيم كان يتضـايق كثيرا من الخطب الرنانة .. ومن الكلام المعاد .. وكان يود دوما لو تم الاجتماع حول نقاط محددة كما يحدث فى الخارج وكان كثيرا ما يجهز هـذه النقـاط . وكان الحـكيم على اسـتعداد دائم للنصـح والمشـورة مع انه فى قرارة نفسـه كان يشـعر بالأسى من اننا نتخلف وبخطوات واسـعة !!

حقيقة الصفات المشهورة عنه :

ربما لا يتم الحـديث عن شخصـية توفيق الحكيم من دون الاشارة الى بعض الأخـلاق التى صمم الرجل أن يصف نفسـه بها ... من بخل ومن عـداوة للمرأة ... الخ » .

والحقيقة التى لاشك فيها أن الحكيم كان كريمـا جـدا ، ولم اجد فيمن عرفت من أقرانـه (فى الأدب او العمر او المكانة الاجتماعية » من هو أكرم منه حقيقة ، والحقيقـة ان كرمه كان تلقائيـا .. وحاتميـا فى بعض الأحيـان .

ولكن بخل الحكيم كان صورة من صور الثقة فى الكرم تماما كالتواضـع الشـديد عند أصحاب العظمـة الحقيقية والموهبة التى لا تدانيها موهبة .

وكانت السيدة بنت الشاطىء (على سبيل المثال) قبل أن تجلس الى مقعدهـا فى صـالونه تنادى طالبـة قهوتها .. ثم هى لا تجد الا السعادة فى حديثها عن بخل الحكيم المزعوم .

ولكن « بخل الحكيم » الذى اشتهر عنه كان ملجأ من ملاجىء الحكيم للخـلاص من كثير من المواقف التى يكون ثمن الصداقة فيها غير متناسب مع روحها .

***

زواج توفيق الحكيم :

تأخر الحكيم فى زواجه ، ربما شغله الفكر الحق الذى كان يستغرق وقته فى النهار والليل ، ربما كان بطبيعة الحياء التى سيطرت عليه أميل الى الوحدة ، وكانت والدته على نحو ما روى — لا تفتـأ تحثـه على الزواج ، وتختار له الفتـاة تلو الفتـاة ، ومن الطف ما يحكى ان الحكيم ذهب لمشاهدة احدى هاتيك الفتيات — عن بعد طبعا — فى محل (بنزايون مثلا) فى مدينة .. وكانت ابنة احد كبار أثرياء مصر كلها .. فاذا هو يعرض عن التأمل فيها بحكم ما فيه من خلق .

فاذا احـدى قريباتهـا أو من صحبتها تعلق فى استنكار .. ما هذا الذى يفعله ؟؟ الا يعرف أن فى انتظارها فى مصر دكتور فى الجامعة ؟ .. وقد كان ،

وخطبت هـذه الفتاة لأستاذ جامعى مرموق من علمائنا المعدودين ، عليه رحمة الله ، وقد تصـادف أن صادق الحكيم بعد ذلك .

وكان الحكيم يروى لى هذه القصة بعد أن سألته عن هـذا الأسـتاذ ، ويقول فى تواضـع شديد .. ان هؤلاء الأقـارب (فى هـذا الزمن) كانوا يظنون (على عادة الريفيين) أن وكيل النيابـة (الذى هو الحكيم) أعظـم من أسـتاذ الجامعـة .. وكان يردف مفسرا . « ذلك أن السـبب هو اعتقـادهم فى قـدرة وكيـل النيابة على حبسهم ، وهى السلطة التى لا يتمتع بهـا استاذ الجامعة » .

* * *

ثم ان الحكيم تزوج سـيدة من اعظم السيدات ، وكان لها أبناء من قبله فاذا بالحكيم يحنو عليهمويرعاهم رعاية كريمـة لا يعرف احد من شأنها شيئا ، لأنه كان فى هذا الصـدد رجلا عظيما .. وأصيلا وشهما بكل ما تعنى هذه الكلمات من معان .

وكان شقيق زوجته هو المرحوم الأستاذ الدكتور محمد لطفى بيومى العميد المؤسس لكلية طب طنـطا ، ونائب رئيس جامعة الاسكندرية الأسبق .

وكان للحكيم نفسه فروع كثيرة من العائلة وصلت الى مناصب مرموقة ، ولكن الحكيم وهو البار رحمه الله لم يكن يحرص على اظهار نفسه محوطا بهم فى اى وقت .

كان الحكيم فى هذه الناحية من الذين اتسعت مداركهم الانسانية لتشمل الانسانية كلها بصلة الرحم .

❋ ❋ ❋

موقفه من المراة :

اشتهر الحكيم بعداوة المراة كما اشتهر بالبخل ، وفى كلا الخصلتين كان توفيق الحكيم على النقيض تماما ، فقد كان من اكثر الناس كرما وحدبا على المراة وحبا لها .. وقد شهدت له بذلك اقلام السيدات قبل الرجال انما كان الحكيم فى هذين الخلقين المزعومين (البخل وعداوة المراة) خير صورة للرجل الذى يبلغ قمة العظمة فاذا هو متواضع .. وقد بلغ الحكيم قمة حبه المراة ، وحب الكرم ، حتى انه لم يعد بحاجة الى مجرد الضجر البسيط من سماع اللفظ حول هذين الخلقين .

والدلائل على ما اقول كثيرة ، ولو كان الحكيم بخيلا حقا لضجر من هذا الوصف بالبخل ، ولو كان

بخيــلا حقا لمـا حرص على اداء ما عليــه من حقوق او واجبات للناس .. اذكر فى هذه المناسبة ان كان لى الشرف فى صيف ١٩٨٣ ان أزور الدكتور حسين فوزى فى شقته فى باريس ، وقد وجدت عنده (كنبة) فى منتهى الأناقــة تتحول بلمسة بسيطة جــدا الى سرير أنيق جدا .. ولم يمهلنى الدكتور فوزى وقتــا طويلا حتى قص على ان الحكيم عندما زاره (العام المــاضى » أصر على ان يشترى هذه الكنبة فى مقابل قضــائه الفترة البسيطة جدا التى قضاها فى باريس ضيفا على الدكتور فوزى فى شقته هذه .. ولكنه مع ذلك رحمه الله حول القصة الى ابداعات اخرى على نحو ما روى الأســتاذ يوسف جوهر فى مقال هو من اعظم المقالات التى كتبت عن الحكيم .. فجعل هــذه الكنبة كمسمار جحا ، وجعل لنفسه اجرة يقتضيها ممن ينامون على هــذه الكنبة ... وربما كنت الوحيد الذى نال هــذا الشرف العظيم . وعدت الى أديبنا الكبير فاذا هو سعيد سعادة الكريم ، واذا هو يعقب بان ادفع الحساب للدكتور فوزى وليس له لأن للدكتور فوزى نصف هذه الكنبة فضــلا عن وجودها فى شقته .

* * *

كان كريما على نفسه :

كان توفيق الحكيم اكرم من عرفت على نفسه .. كان مترفعا جدا عن كل شيء ، وربما كان هـذا السبب وراء اصراره دائما على البدء بتحديد (الأجر) عند التعاقد معه على مقالات او أعمال فنية فبهذه الطريقة وحدها كان يمكن للحكيم ان يحفظ لنفسه عزتها من الظنون (البشرية » الخبيثة بانه ينتظر كذا ... او كذا ، وحين تعاقد انيس منصـــور مع توفيق الحكيم فى حفلة الهيلتون (التى أعقبت الجلسة الأولى للمجلس الأعلى للثقافــة عنــد تشــكيله فى اول صيف عــام ١٩٨٠) على كتابة مقال اسبوعى مقابل مائة جنيه ، كان ذلك التعاقد على مائدة الغداء امام جارهما فى المــائدة وكان الشيخ عبد المنعم النمر والســيدة سميحــة إيوب .. وقد اخذت المسألة وقتا تعالت فيه ضحكاتهم جميعــا مما أسمع الجالسين على الموائــد المجاورة .. مما دفعنى بالطبع الى سؤاله عن سر هــذا الحوار الضاحك .. وكنت أظن يومها ان مثل هـــذا الحــوار سيكون من الأسرار التى حظيت بمعرفتها ، فاذا بالحكيم نفســه يكتب تفاصيل الاتفاق ويذيعها على الناس جميعا ، فى أول مقال يكتبه تنفيذا لهذا الاتفاق .

ماذا نفتقد من توفيق الحكيم :

وبعد فماذا نفتقد من شخص الحكيم ؟ انى لأتأمل كل ما كان فى هذا الرجل العظيم واعود الى التأمل مرة بعد أخرى .. فتتالى الصفات المحببة الى النفس .. لاشك أننا نفتقد : اللفظ البرىء ، والابتسامة الحانية ، والوجه الصبوح ، والصوت الهادىء ، والتردد المؤكد ، والضحكة المجلجلة ، والدعابة الجميلة ، والطيبة التلقائية ، والشك الجميل ، والتشكك المثير ، الملاحظة الذكية ، والنظرة اللماحة ، والحديث الطلى ، والجاذبية المؤثرة ، والطلعة المشرقة ، فعليك رحمة الله يا أديب العربية الكبير .

الباب الثانى

توفيق الحكيم مفكرا

توفيق الحكيم مفكرا

كانت الحكمة ضالته :

كان الحكيم واحدا من أولئك الذين يصــدق عليهم قول النبى فيما ما معناه أن الحكمة ضالة المؤمن يبحث عنها فى كل مكان .. لهذا كان الحكيم لا يمــانع فى أن يغالب نفسه حتى تستمع الى كل ما يقابلها وتتأمل فيه .. وهو لهذا لاينى عن تثقيف نفســه ، بالسؤال عن المستحدثات الحضــارية التى كانت تلاحقــه كما تلاحقه النــاس ، وهكذا كان شأنه فى تكوينه لفكره ، بناء على أسس متينة وقوية ومتعمقة من الثقافة العريضــة الواسعة والراقية، ثم هو يبذل كل يوم جهده فى الاضافة اليه والرقى به .

القدرة على صياغة الفكر فى بساطة :

كان توفيق الحكيم قادرا على صياغة التعريفات المبسطة المعبرة ، ولم يكن من الذين يظهرون القدرة على استعمال القواميس وايراد المعنى اللغوى والمعنى الاصطلاحى رغم انه كان يفعل ذلك فى كل شاردة وواردة، ولكن فيما بينه وبين نفسه ، ثم اذا هو بعد ذلك يصوغ تعريفا مبسطا يدخل به الى القارىء مباشرة .

الأديب يتغلب على الفيلسوف :

ولم يكن مولعا بعد هذا باظهار دقة التعريف ونفى ما لا يندرج تحته وحصر ما يندرج تحته ، حتى يكون التعريف الذى يورده جامعا مانعا كما يقولون ... وانما هو فنان ، يعرض الزهرة على القارىء ان شاء استمتع بها وان شاء لم يستمتع .

الانتصار على النفس :

هكذا كان الحكيم متعاليا على نفسه الأمارة ــ ككل نفس ــ بالتعالى على قرائها ، ولهذا استطاع الحكيم ان ينتشر انتشارا واسعا بما كتب الى أن جاء زمن استغنى فيه جمهور كبير عن القراءة فلم يعرفوا توفيق الحكيم .

تعريف الفكر عند توفيق الحكيم :

يقول توفيق الحكيم فى تعريفه للفكر (فى الكلمة التى وضعتها الأهرام على رأس صفحة الفكر فى ملحقها الأسبوعى) ان كلمة الفكر تعنى تأمل الأشياء بالعقل للوصول الى المعرفة .. ومن يمارس ذلك نطلق عليه وصف « المفكر » .

هكذا يستطيع الحكيم بصادق حسه وعميق ثقافته ان يعطى مفهوما ممتازا للفكر .. فالمعرفة هى الهدف .. والعقل هو الوسيلة ، والأشياء هى مدار التفكير .

المفهوم العريض للفكر :

توفيق الحكيم اذن يبتعد عن المفهوم الضيق للفكر الذى يجعله قريبا فى معناه من الأسلوب ويبتعد عن المفهوم المتعالى للفكر الذى يلتزم بالمنهج والطريقة والدراسة ... الخ .

ويبتعد عن المفهوم المذهبى للفكر الذى يقيد الدائرة التى يعمل فيها المفكر .

وهكذا كان توفيق الحكيم المفكر .. يتأمل الأشياء بالعقل بكل ما فى العقل من خبرات وحقيقة وقدرات وتجارب ليصل الى المعرفة .

وهو نفسه يستأنف كلامه السابق فيقول ان المفكر وصف واسع شامل لأنماط عديدة من الناس ، فالفيلسوف مفكر والعالم مفكر والأديب مفكر والفنان مفكر والمخترع والمهنى ...

يتسع توفيق الحكيم بوصف المفكر ليشمل به كل ما يمكنه أن يشمل من الناس .. فماذا بقى للفكر اذن من خاصية ؟؟

ان المسألة ليست هكذا عامة معممة انما ينبهنا توفيق الحكيم بذكاء شديد الى أن كثيرين « أيضا » يؤدون عملهم بغير ذلك النوع من الفكر الذى نخص به من نطلق عليه اسم المفكر ، هؤلاء وهم الأغلبية الغالبة يؤدون أعمالهم بتفكير مسبق صنعه لهم المفكر ورسمه لهم ، وشق لهم طريقه فساروا فيه دون تأمل أو مناقشة » .

* * *

ريادة الفكر :

توفيق الحكيم اذن من الذين يؤمنون بالدور الريادى للفكر فى مجتمعه وهو لا يدعو الى هذا الدور فحسب ، ولكنه يلفت أنظارنا الى وجوده ، رضينا أم أبينا .

ميكانيكية الفكر :

ولكننا بعد هذا امام اشكالية جديدة .. فهل كأن الحكيم يرى العملية الريادية للمفكر مجرد دور ميكانيكي تضطره اليه الحياة ؟ ربما كانت أبلغ اجابة على مثل هذا التساؤل قول توفيق الحكيم نفسه :

« ولقد قلت ذات يوم ان مهمة المفكر الحق ليست فى توجيه الرأى العام ، بل فى خلق الرأى العام .. لأن التوجيه معناه الدفع والفرض والسيطرة .. وفى هذا التوجيه من المفكر انتصار لرأيه ، ولكنه فى ذات الوقت خذلان لآراء اخرى جديرة بالنظر ، ان المفكر فى نظرى رجل تكوين وتربية وخلق لا رجل سيطرة وانتظار فهو لا يجب أن يلبسك رأيه ، بل يجب ان يخلق فيك رأيك » .

هكذا تتضح لنا رؤية الحكيم « التأملية » لدور المفكر « التأملى » فى حمل الناس على التأمل أو التفكير . ولكن الحكيم نفسه لا يمضى فى الشوط الى نهايته فهو ينبه نفسه الى ان اغلب الناس لا يستطيعون ولا يريدون ان يكون لهم رأى .

* * *

صـناعة الآراء :

هكذا وضع توفيق الحكيم يده وأيدينا على مشكلة الحضارة الحديثة التى تجعل الناس (فى معظمهم) يستسهلون الآراء التى تصنع لهم صنعا بحيث أصبح الناس (كمـا عبر الحكيم عن آراء معاصريـه) يطلبون الآراء المصنوعة كما تطلب السيارات والملبوسات .

ولن ينجو الناس من هذه الطامة الا اذا أدركوا اهمية وجود نوع من المفكرين (لا يطلق عليـه الحـكيم وصف المفكر الحر كما تعتاد الأقلام .. وانما هو يسميه المفكر المحرر) يذكرون الناس دائما بان يفحصوا ويحللوا ويناقشوا ما يقدم لهم من ملبوسات الآراء الجاهزة .. ومصنوعات الشعار الموضوعية .

❊ ❊ ❊

الفكر والعمل فى السياسة :

ربما كانت هذه الأفكار التى سقناها فى الفقرات السابقة عن مفهوم الفكر عند توفيق الحكيم خير معين لنا على تفهم فلسفة الحكيم فى موضـوع « السياسة بين الفكر والعمل » فالحكيم على لسان البيريه (فى محاورة بين البيريه والعصا والحمار) يبسط سر العلاقة بين الفكر السياسى ، والعمل السياسى ، على نحو أن القضية عند الاثنين (رجل الفكر ورجل السياسة) واحدة .. هى

العدالة والحقيقة لكن المفكر ينظر الى القضية من زاوية القاضى .. والسياسى ينظر اليها من زاوية المحامى ..

يؤكد الحكيم هذا المعنى على لسان العصا بقوله : حقا .. ان القضية عند القاضى هى البحث عن الحقيقة .. والقضية عند المحامى هى الدفاع عما يراه هو الحقيقة .

ويستمر الحكيم فى تبيان هذا المعنى بعبارات أخرى ينطقها الحوار ..

« والبحث موضع حيرة وتناقض ولذلك قد يكون راى القاضى فى الابتدائى غيره فى الاستئناف او النقض ، اما المحامى فرايه ثابت ، وخطه محدد فى كل المراحل كذلك الفكر فهو عرضة للتغيير ، اما العمل فهو الثبات والتقرير » .

هكذا كان توفيق الحكيم من اكثر المفكرين تقبلا لفكرة تعرض الفكر السياسى للتغيير تماما كما يحدث لراى القاضى الباحث عن الحقيقة .. او تماما كما كان من الحكيم نفسه فى السبعينات .. وربما كان المثل الواضح من رجل الفكر « جوركى » ورجل السياسة « لينين » هو المسيطر على فكر توفيق الحكيم حين ادار هذا الحوار بين البيريه والعصا والحمار ولكننا لايمكن

لنا ان ننكر أن الحكيم كان متأثرا بتجربته قبل أن يتأثر بجوركى ولينين .

***

استحالة اندماج الفكر والعمل :

كان الحكيم يجـاهر بالقول أنه من المستحيل أن يندمج الفكر والعمل وفى كتابه « التعادلية » يشرح لنا الحكيم السر فى ذلك فيقول ...

« لانهما عندما يندمجان ويتحدان يصبحان شيئا واحدا هو العمل ، ولنضرب مثلا بسيطا : أنت تفكر فى السفر الى الريف للنزهة فاذا سافرت بالفعل فقد انقلب تفكيرك الى عمل .. واذا لم تسافر فان الذى حدث هو التفكير : فاذا اندمج التفكير واتحد مع العمل فمعنى ذلك انك سافرت ، أى أصبح الفكر عملا : أى انه لم يعد هناك تفكير وعمل بل عمل فقط . لأن التفكير انتهى .. ابتلع فى جوف العمل » .

ربما عكست لنا تأملات توفيق الحكيم فى هـذه الجزئيـة بعض خصـائص فـكره فى الحيـاة عموما ، فالحكيم ليس من انصار « الأبراج العاجية » ولكنـه يعرف أن بعض الأفكار التى لا تتحول الى عمل — تبقى أسيرة هـذا الأبراج .. والحكيم ايضا ليس من انصـار

اضفاء صبغة الفكر (والمذهب بالتبعية) على الأعمال المتحققة لأنه ينظر اليها من باب أنها أعمال يجوز عليها ما يجوز مع كل عمل .. وكل عمل لابد أن يسبقه فكر بالضرورة ، وفى موضع آخر (فى أول هذا الباب) نرى أن الحكيم يمتد بالفكر كمعنى ليشمل كل عمل وكل مهنة .. ولكن المشكلة أن الغالبية العظمى من أصحاب هذه المهن والأعمال لا يفكرون بأنفسهم وانما يفضلون الأفكار الجاهزة .. واذن فهناك من يفكر لهم .

***

الخير والشر .. حتمية وجود الشيطان :

ماذا يكون شأن مثل هذه الأفكار اذا امتددنا بها الى فكر الحكيم نفسه لنرى ماذا صنع الرجل بالأفكار التقليدية حين أعاد التفكير فيها .. لنأخذ مثلا قضية كقضية الخير والشر (أو وجود الشيطان) .. نحن نجد أن توفيق الحكيم الأديب الفنان المبدع قد نجح نجاحا منقطع النظير فى التعبير عن المعانى التى تتمثل فى وجود الشيطان الى الحد الذى جعله يصور الشيطان على أنه « شهيد » .. وذلك فى قصة « الشهيد » التى نشرها ضمن المجموعة القصصية « أرنى الله » .

فأنت تجد الشيطان فى هذه القصة يذهب الى البابا ثم الى الحاخام ثم الى شيخ الأزهر يرجوهم قبول

توبته ، واعتناق اديانهم ، فلا يوافقون ابدا ، ويدور بينه وبين كل منهم ــ واحدا بعد الآخر حوار طويل لا يؤدى الى نتيجة فشيخ الأزهر يقول له ان اختصاصى هو اعلاء كلمة الاسلام والمحافظة على مجد الأزهر وانه ليس من اختصاصه ان يضع يده فى يد ابليس .. قبل هذا كان الحاخام اكثر قسوة حيث قال لابليس انه ليس من عادة رؤساء الدين اليهودى التبشير أو الاهتمام بان يدخل الغير فى دينهم ، حتى ولو كان هذا الغير هو ابليس .. والحكيم الفنان يورد على لسان الحاخام قبل هذا القول الفصل حديثه الى نفسه حيث يقول لها :

« اذا عفا الله عن ابليس وحمى الشر من الأرض .. ففيم اذن التمييز بين شعب وشعب ، بنو اسرائيل شعب الله المختار ، لن يكون بعد اليوم مبرر لاختيارهم دون بقية الشعوب ولا لامتيازهم على بقية الأجناس .. حتى السيطرة المالية التى صارت اليهم منذ اجيال ستذهب عنهم بذهاب الشر عن النفوس .. وزوال الجشع وموت الطمع وفناء الأثرة والحرص والأنانية .. ايمان ابليس سيدك صرح التفوق اليهودى وسيهدم مجد بنى اسرائيل » .

إما البابا فانه فزع جدا من ابليس ، وابليس يحاول أن يقول له ان المسيح قد قال « انه هكذا يكون

فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب اكثر من تسعة وتسعين بارا لا يحتاجون الى توبة » .

« وهكذا فان المسيح لم يفرق بين شخص وشخص .. ولكن البابا يقول لنفسه : اذا آمن ابليس ففيم اذن بعد اليوم مجد الكنيسة ؟ وما مصير الفاتيكان .. ومتاحفه وتحفه ومخلفاته الدينية الكبرى ؟ كل شىء يفقد معناه وتذهب روعته وتولى مقاصده .

ان ابليس هو محور الكتاب المقدس بعهديه « القديم والجديد » فكيف يمحى ابليس من الوجود دون أن تمحى كل تلك الصور والأساطير والمعانى والمغازى التى تعمر قلوب المؤمنين وتشغل خيالهم ؟ ما معنى « يوم الحساب » اذا محى الشر من الأرض ؟ وهل يحاسب اتباع الشياطين الذين اتبعوه قبل ايمانه ام تمحى سيئاتهم ما دامت توبة ابليس قد قبلت ؟؟

حوار طويل ينتهى فيه البابا الى مخاطبة ابليس بقوله : « اصغ الى يا ... لست ادرى بماذا أناديك ؟ ارأيت ؟ » حتى اسمك بعد توبتك سيثير اشكالا .. كلا .. ان الكنيسة ترفض طلبك اذهب اذا شئت الى دين آخر .

***

الشـــيطان الشـــهيد :

هكذا يمضى الحكيم فى تصـــوير موقف الشيطان « اذا اراد ان يغير من مسار حياته « وأن يتوب » وأن يدخل الى أى من الأديان .. ثم ان هذا الشيطان يذهب الى الســـماء فينصحه جبريل ــ هو الآخر ــ بالعودة الى عمله ، هنا ينفجر ابليس (من الغيظ) ليقول : « انى افعل اكثر من الاحتمال .. ان من يمت فى معركة من أجل الله يكتب عنده من الشهداء ، وانـا اتحمـل فى سبيله إكثر من الموت ، ليتها كانت معركة ، ليته كان الموت ، ليتنى كنت من جنوده « وترك ابليس الســماء مندهشا وهبط الأرض مستسلما وهو يصرخ :

انى شهيد .. انى شهيد

***

فلسفة بلا تفلسف :

تتوالى علينا على هـــذا النحو النظرات الفلسفية لتوفيق الحكيم ، فهو لا يتفلسف فى كتاب ، ولا يصنع نظرية كاملة او مقالة كاملة فى ايضـــاح اى موقف من المواقف المعهودة فى عالم الفلسفة او فى علم الفلســفة ، ولكنه يتناول القضايا العامة بروح تأملية ــ هى كمـا قدمنا روح الفكر التى تجعله قادرا على أن يصـــل الى

مواقف (أصيلة) خاصة به وناتجة عن تفكيره الشخصى وان يصوغ بعد ذلك هذه المواقف صياغات ذكية ، فى أعمال فنية ان لم تكن مسرحية فهى حوارية على الأقل أو قصصية مليئة بالحوار الحى الممتاز الذى لا يجيده الا توفيق الحكيم .. أو بعبـارة اخرى لا يجيده احد آخر مثل توفيق الحكيم .

أرنى الله :

ولعل كتابه « أرنى الله » خير نموذج لهذه القصص الذكية التى تعبر عن فلسفة عميقة متفردة ، تستمد جذورها بالطبع من ايمان قوى ، وعميق بالله ، وتستظل بكل ما فى روح الشرق من عوامل الدفء .

ولهذا فان الحكيم يجعل الحظ مثلا يأخذ صورة موزع البريد الذى يوزع الحظوظ ، وقد جاءت فى رسائل فلا يميز بين الربيع والخريف ولا بين القبيح ولا المليح . ولا يفرز الذى يستحق ممن لا يستحق لأنه لو فعل هذا « لما انهى شغلا فى يومه » .. وهكذا يعبر الحكيم عن مفهوم جديد للحظ ببساطة شديدة فى تلقائية اشد !!

***

القصص الايمانيـــة :

على هذا النحو أيضا تمضى أفكار الحكيم فى مجموعة أرنى الله التى تضـم ثمان عشرة قصة ممتعة حقا ومليئة أيضـا بالفلسـفـة العميقـة من أمثـال « ارنى الله » « الشهيد » ، الذى هو الشـيطان . « موزع البريد » الذى هو الحظ ، « وانـا الموت » عن محاولة للانتحار ، و « دولة العصافير » « كانت الدنيـا » « فى سنة مليون » « الاختراع العجيب » « الأسطى عزرائيل » « معجزات وكرامات » « مؤتمر الحب » « امرأة غلبت الشـيطان » « الحبيب المجهول » « فى نخب العصابة » « أسـعد زوجين » « اعتراف القـاتل » « ميـلاد فكرة » « وجه الحقيقـة » .

اهميـة التفاهـات :

وفى حـوار من قصـة انـا المـوت « يتحـاور الحبيبان ، تسأل العاشقة عشيقها ان كان يشكو من امساك مزمن » فيجيبها نعم : وكيف عرفت ذلك ، وتجهم صاحبهـا (فليس هـذا هو التعليق اللائق بتفـكيره العميق .. ولكنها أسرعت تقول بلطف) :

« اتدرى لمـاذا تفكر فى الانتحار » هـذا طبيعى ، انت تصـعد فى القمم .. الا تلاحظ ان أولئـك الذين يصعدون الهرم الأكبر يشـعرون بدوار ويحسـون كأن الأرض تجذبهم وتناديهم ؟

ولولا أيد تسندهم لسقطوا أو ألقوا بأنفسهم وهم لا يشعرون .. ولكن من المستحيل على من يمشى فوق الأرض أن يشعر بدوار المرتفعات الذى يغرى بالوقوع .. أتدرى ما هو العلاج الناجع لمثل حالتك .. أتدرى ما هو ؟ أن تتعاطى بعض التفاهات ..

وهكذا يستدرجنا الحكيم الى جوهر فلسفته فى أن حياة الانسان لا تسعد فى هذا الكون اذا لم تكن هناك بعض التفاهات .

***

من الذين يؤمنون بالغيب :

كان الحكيم واحدا من الذين يؤمنون بالغيب « فلم يكن من هواة التشكيك فى كلام محدثه ، ولم يكن من الجامدين فى أفكارهم ولا الفرحين بمعلوماتهم .. بالاضافة الى أنه كان قبل كل ذلك من الذين يحبون الصدق ويؤثرونه فى حياتهم .

كل هذه الصفات الأربع ساعدت هذا الرجل على أن يتقبل بروح ممتازة كل ما هو جديد أو مستحدث من دون أن يصدم فى القديم أو فى الجديد .

ولقد كانت سعادتى مضاعفة حين وجدت هذا المعنى فى مقال الأستاذ عبد السلام داود وهو يحكى قصة من قصص الحكيم فى دار أخبار اليوم فى الأربعينات مع

المغفور له كامل الشناوى ، وقد روى الأستاذ عبد السلام داود المعنى بدون تفلسف ظاهر ولا باطن ، فكان مقـاله من أروع المقـالات التى كتبت عن توفيق الحكيم .. ربما لأنه لم يفقد التواضع وهو يكتبه .

فقد قال الحكيم يومها — على ما يروى الأسـتاذ عبد السلام داود — بعد أن ضحكوا جميعا من انخداع الحكيم وتصديقه امرا غير حقيقى رواه كامل الشناوى :

« اذا كنتم تضحكون لأنى صـدقت فهذا فى الواقع أمر يحسب لى لا على فالواجب على الانسان أن يفتح عقله لكل جديد ولو كان يستنكره ، ولو رفض النـاس تقبل الجديد المثير الغريب لتوقف العالم عن التقدم » .

هل عرفنا الآن لمـاذا لم يكن الحكيم يتوقف عن التقدم حتى ولو كانت قد اتيحت له مائة سنة اخرى من العمر ؟؟

***

عميق الايمـان :

كان توفيق الحكيم مؤمنا عميق الايمان ، ولربمـا كان من سوء حظ جيل الطلائع اليوم انهم فوجئوا بصورة له مخالفة تماما رسمتها الصحافة فى معركة مفتعلة بينه وبين الشيخ الشعراوى ... ربما عن سوء قصـد ،

أو عن ضيق أفق صحفيين صغار من الجيل الجديد الذى لم يتح له ان يقرأ ... وتسارعت الاجابات الى الحد الذى أصبح من العسير على اى مفكر مستنير ان يقف ليقول « ان المسيح لا يستحق الصلب » ... وكانت مأساة هذه المعركة انها وضعت مجتمعنا كله فى الخانة التى يوضع فيها أصحاب الرؤى المتعجلة حتى وان كانت صوابا ، الفكر الضيق حتى وان كان سليم النية ، ولم يكن فى وسع الحكيم أن يفعل شيئا بعد أن تجاوزت الأمور الحدود حتى على الشيخ الشعراوى نفسه .. وانتهت المسألة بابراز أخبار صلح (ملفق) بين رجلين لم يكونا خصمين ..

وحين حاول صحفى شاب فى أخبار اليوم كان مسئولا عن الصفحة الدينية فيها ان يتدارك الأمر وان ينبه المجتمع الى خطورة ما فعل المجتمع بنفسه كان الأمر قد ذهب بعيدا بعيدا جدا .

وفى مقابل هذه المأساة فقد انتبه كل المستنيرين فى مصر الى خطورة ترك مسائل الراى فى أيدى بعض من تنقصهم الكفاية للحكم على الأمور .

وبدأت كل الصحف تعيد النظر ــ بطريقة لاواعية ــ فى أسلوب تولية غير المتخصصين صفحات الراى والفكر والدين أيضا .

فكرة الجيل الجديد عن الحكيم :

ومن أكثر الأمور مدعاة للأسف فى فكر الجيل الجديد (الذى اضطرته الحياة الى الاكتفاء بمشاهدة التليفزيون وحسبان الثقافة تنتهى عند هذا المصدر) أن تجد الشباب لا يعرفون لتوفيق الحكيم قدره فى مجال الفكر .. ربما كان من أسباب هذا أن طائفة الأدباء المسيطرين منذ السبعينات على وسائل الاعلام اقنعوا الشباب (بطريقة لاواعية) أن الأدب هو المسرحية أو القصة او الشعر .. اما الفكر العميق الذى يهتدى به الناس الى حقائق الحياة والتاريخ فهو أمر قد عفا عليه الزمن ، حلت محله مقالات وأعمدة لا هم لها الا الانضمام الى أبواق الاعلام (على اختلاف أهدافه) فحسب .

***

ومن العجيب أن تسمع من شباب (متدين) أن توفيق الحكيم هذا ليس له علاقة بالاسلام لا من قريب ولا من بعيد ، ولا يعرفون لهذا الرجل فضله السابق فى أعمال فكرية كثيرة خصص موضوعها للاسلام ، فضلا عن ما فى أعماله الأدبية التى حفلت بقيم الاسلام ومعانيه الجليلة فى كل جزئياتها .

الحكيم وموقف فولتير من الرسول (صلعم) :

ولنأخذ مثلا موقف توفيق الحكيم من فولتير ، فتوفيق الحكيم ينزل بفولتير عن مرتبة المفكرين الأحرار بسبب موقفه من الاسلام ومن النبى محمد ، وهو موقف واضح صريح لم يتنازل عنه توفيق الحكيم ولم يتراجع بل نشره منذ فترة طويلة (منذ ٤٩ عاما بالتحديد) فى كتابه « تحت شمس الفكر » وفى أول هذا الكتاب .

ربما لا نعرف عن فولتير الا أنه اديب فرنسى ، ولكن ماذا فعل هذا الأديب الفرنسى البارز وماذا كتب فى أدبه ضد الاسلام وضد النبى .. هذا هو ما سنترك توفيق الحكيم نفس يحدثنا عنه تحت عنوان « الدفاع عن الاسلام » فى ثانى فصول كتابه « تحت شمس الفكر » الذى صدرت طبعته الأولى عام ١٩٣٨ .

سقوط فولتير :

فالحكيم يقول انه عجب أشد العجب للسب الذى سب به فولتير النبى صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يعجب فقد رأى فولتير يهدى كتابه الى البابا بنوا الرابع عشر بالعبارات التالية :

« فلتستغفر قداستك لعبد خاضع .. اذ تجرأ

إقدم الى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبه ضد مؤسس ديانة كاذبة بربرية ، ... فلتأذن لى قداستك فى ان أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه ، وان اجرؤ على سؤالك الحماية والبركة وانى مع الاجلال العميق أجثو وأقبل قدميك القديستين » .

فولتير

١٧ إغسطس ١٧٤٥

***

رسو يتجاهل :

قال الحكيم انه بحث فى كتابات روسو (وكان ينقد « مؤلفات فولتير » عما يرد الحق الى نصابه . « فلم أر هذا المفكر الحر أيضا يدافع عن « محمد » ما الصق به كذبا وكأن الأمر لا يعنيه ، وكأن ما قيل فى هذا النبى لا غبار عليه ولا حرج فيه ولم يتعرض للقصة الا من حيث هى أدب وفن » .

يشير الحكيم أيضا الى ان رد البابا لم يكن ردا رقيقا كيسا لا يشير بكلمة واحدة الى الدين .

فجيعة الحكيم فى مفكر حر :

ويحدثنا الحكيم أنه من ذلك اليوم وهو يحس

كأنما فجع فى شىء عزيز لديه هو الايمان بنزاهة الفكر الحر ..

« ولقد كنت أحيانا التمس الاعذار لفولتير ، وازعم انه استند الى علم خاطىء بأخبار النبى ولكن كتابه الى البابا يتهمه اتهاما صارخا ولايدع مجالا للشك فى دخيلة أمره » .

« فما باله عندما عرض لذكر محمد والاسلام كتب شيئا هو التعصب بعينه ، تعصب لدينه ، ذهب فيه الى حد السجود وتقبيل الأقدام لا لرب العزة والخلق بل لبشر هو رئيس الكنيسة التى ما أرى ان فولتير كان فى ذات يوم من خدامها المخلصين .

هى الاطماع التى كانت تدفع « فولتير » فيما ارى الى التمسح باعتاب الملوك والبابوات ولقد يقدم ثمنا لذلك أفكاره الحرة احيانا » .

منذ ذلك الحين .. وفولتير عندى متهم ولن ابرئه ابدا ولن أعده ابدا من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده للفكر وحده .

***

هانوتو والامام محمد عبده :

ويحدثنا الحكيم عن افتراءات الأوربيين من امثال هانوتو على الاسلام ويترجم لنا عبارات مما كتب المسيو كيمون فى كتابه (باثولوجيا الاسلام) وكلمة باثولوجيا تعنى علم الأمراض .. أى المرض الذى هو الاسلام حيث يقول كيمون :

« ان الديانة المحمدية جذام نشأ بين الناس واخذ يفتك بهم فتكا ذريعا وما هى الا مرض مروع ، وشلل عام، وجنون ذهولى يبعث الانسان على الخمول والكسل ولا يوقظه منها الا ليسفك الدماء ويدمن معاقرة الخمور .. و .. » .

« وما قبر محمد فى (مكة) (لاحظ المغالطات التاريخية والجهل ... جوادى) الا عمود كهربائى يبعث الجنون فى رؤوس المسلمين ويلجئهم الى الاتيان بمظاهر الصرع « الهستريا » العام ، والذهول العقلى ، وتكرار لفظ « الله » الى مالانهاية ، ... الخ هذه الأقوال التى يفندها توفيق الحكيم فى « تحت شمس الفكر » .

***

آن للغرب ان يحترم عقائد الشرق :

وفى رده على هذه الترهات فان الحكيم ينقل بعض عبارات الشيخ محمد عبده ثم يعقب ببعض ردود له

نستشف منها مدى حرص هـذا المفكر العظيم على دينه وأهل دينـه :

« نعم .. لقد آن للغرب ان يحترم عقائد الشرق.. بل لقد آن للغرب ان يدرك ان محمدا والاسـلام هما من منابع الفكر الحر وطفرة من طفرات البشرية المتحررة .. والدليل على ذلك شخصـية النبى ذاتها وغرضـه فى الدعوة الى دين جوهره اقناع النفس الحقيقية » ويقرر توفيق الحكيم فى قوة أن محمدا هو :

« أول نبى مجد البشرية بأن اعلن انه بشر ، وأن دينه هو دين الفطرة البشرية ، وانه قاوم أولئك السفهاء الذين كانوا يطلبون الى الأنبياء ان يثبتوا نبوتهم بالمعجزات فأثموا فى (حق » الفكر البشرى ، قبل أن يأثموا فى حق الدين .

ويستشهد الحكيم بكثير مما ورد فى كتب السيرة على أن النبى لم يكن أبدا الا من انصار الحق ، والفكر الحـر .

***

فهم حقيقة النبوة :

« ان محمدا قد فهم حقيقة النبوة ، ووعى معنى الحقيقة العليـا وادرك ان اكبر معجزة فى هـذا الكون الا يكون فى الكون معجزات ، وأن كل شىء يسير طبقـا

لنظام دقيق واذا قيل نظام قيل قانون ، واذا قيل قانون قيل عقل مدبر ، هذا العقل واحد تبدو سمته في ادارة الأجسام غير المحدودة في العظم ... كما تبدو في ادارة الأجسام غير المحدودة في الصغر ، ذات اليد العلوية وعين أثرها في كل شيء .. واحدة لا تتغير » .

وتوفيق الحكيم اذن مسلم وموحد أصيل حريص على أن يتثبت من تقدير غير المسلمين لحقيقة الاسلام التي لمسها هو لأنه مسلم حقيقي . ولم يكن مسلما لمجرد الانتماء الذي جاءه من باب النسب . وفي فكر توفيق الحكيم تتمثل روافد كثيرة لعقيدته الاسلامية في أكثر من جوهر في الايمان المطلق بالقدرة الالهية والعدل الآلهي ، في الايمان بأهمية وقيمة الانسان في هذا الكون الذي هو من خلق اله قادر متحكم ، وفي الايمان برسول هو نموذج لكل القيم الانسانية المثالية ... الخ » ...

***

الاسلام والتعادلية :

وفي عام ١٩٨٣ نشر توفيق الحكيم كتابه « التعادلية مع الاسلام والتعادلية » وكان قد نشر الطبعة الأولى منه عام ١٩٥٥ بعنوان « التعادلية » .

في مقدمة هذا الكتاب يذكر لنا توفيق الحكيم أن الكتاب نفسه ليس « الا اجابة عن سؤال ... اجابة

موجزة من سؤال مهم وجهه الى قارىء جاد » **هــذا** السؤال هو ما هو مذهبك فى الحياة والفن ؟

ومع أن الحكيم كان دائم التصريح بانه يكره الفن الذى يبنى على مذهب .. الا أنه لم يجد حرجا فى أن يجعل مذهبه فى الفن هو التعادلية .

ثم اذا هو يجعل مذهبه فى الحياة أيضا هو التعادلية ثم اذا هو يكتشف أن فى الاسلام تعادلية واضحة جدا .

هل يمكن أن نصف رجلا سار على هــذا النحو بانه ليس من الاسلام فى شىء .. ؟

اما كان الأحرى أن نقول انه ليس من المتــاجرة بالاسلام فى شىء ..

وفى ص ١٨٣ من كتابــه الاســلام والتعادلية يقول « ثم وصلت الى ١٩٨٢ فوجدت أن دينى وهو الاســلام وهو جزء من النظــام الكونى قائم على التعادلية ورأيت أن ما يمكن جعلهأساسا لفلسفة عربية اســلامية هو ما نشأ من عقيدتنا التى تقول للانسان ان عليــه أن يعيش فى عالمين : أى أن « يعيش فى الدنيــا كأنه يعيش أبدا ويعيش للآخرة كأنه يمو تـغدا » .

وهذا يقتضى من هذه الفلسفة ان تدرس الحيــاة الدنيا جيدا ، وتحاول أن تعرف ما تستطيع معرفته عن

الحياة الأخرى ، ولكنا مع الأسف لم نحاول دراسة الحياة الدنيا لنعايش الحياة الأخرى فى تعادل منتج فخشينا مواجهة العصر ، فتخلفنا عنه .

***

منشأ الشريعة الاسلامية :

ثم يقول الحكيم :

« ونحن اليوم بصدد تقنين الفقه السلامى ، وجعل الشريعة الاسلامية أساسا للتشريع فمن الواجب أن نعرف منشأ هذه الشريعة فى المجتمع الذى ظهرت فيه لأول مرة ، والمسار التى سلكته هذه الأحكام الشرعية من مبدأ العمل بها الى ما انتهت اليه اليوم ، وهل زالت هذه الأحكام كلها تماما فى مجتمعنا الحاضر أم بقى منها شيء .

« ففى القانون المدنى الذى نطبقه اليوم ، ماذا يتفق مع الشريعة فيه وماذا يختلف ، وفى القانون الجنائى : ماذا اخذ ؟ وماذا أهمل ؟ كل ذلك لابد فيه من احصاء « يقصد مراجعة » دقيق واضح تحت نظرنا حتى يجرى الكلام فيه على أساس العلم اليقينى بالأمانة العلمية التى كان يعرفها ويمارسها السلف الصالح فى عصور الاسلام الزاهرة » .

هكذا كان الحكيم دائما يرسم فى كتاباته الفكرية طريق الموازنة بين الأفكار المتعارضة للافادة من التعادلية » .

***

قيام فلسفة اسلامية حقيقية :

ولهذا فان الحكيم يصرح بقوله « ان رجال الدين فى عصرنا الحاضر اصبحوا لا يجرؤون على ما كان يفعله النبى نفسه » .

ولهذا أيضا فان توفيق الحكيم يدعو الى قيام فلسفة اسلامية حقيقية الاسلام .لأن كل فلسفة لايمكن أن تقام الا ككل بنيان : حجر فوق حجر ، ومجهودات فوق مجهودات .. ولهذا فلابد أن يقوم بناء الفلسفة الاسلامية على أساس الحياة فى عالمين : الدنيا والآخرة ويجب أن تكون قضايا الدنيا قد تعمق فى دراستها رجال دين ودنيا ، أى رجال متبحرون فى علوم الدنيا الى جانب تفقههم فى علوم الآخرة ، وفلاسفة متعمقون فى شئون الآخرة وبالتعادل بين الحياتين تنشأ الفلسفة الاسلامية » .

تأمــل الطبيعـــة :

ونعود الى الحكيم وهو يحدثنا عن حياة محمد فى غار حراء أيام عزلته الطويلة ، وكيف تأمل الطبيعة ، وفكر مليا فى نظامها العجيب فكشف عن بصـــيرته وبصره فامتلأ قلبه بالله الواحد ، كما اقتنع عقله بوجوده فجاء دينه دينا كاملا ، صادقا فى نظر القلب والعقل معا .

« ولئن كان على الأرض نبى حريص على ان يجاهر بمحبة العلم ومصادقته ، ولم يخش دينه العلم ، ولم يضطهد العلم فهو محمد الذى قال :

« فضل العلم خير من فضل العبادة » ... الخ .

***

ايمــان أينشـــتين :

ويروى الحكيم ما قراه لاينشتين من قوله « انه يؤمن بتلك الديــانة التى تمــلأ قلب كل عــالم انقطــع للتأمل » ...

« ذلك التناســـق العجيب بين قوانين الطبيعــة وما يخفى من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر الى جانبه لمــا كونت غير شعاع ضئيل ، أقر بالقول فيه انه لا شىء » .

يقول الحكيم انه لا ريب عندى ان احساس أينشتين

نحو الكون والله هو عين احساس محمد يوم كان يتحنث فى غار حراء قبل نزول الوحى .

ويروى الحكيم :

« انى كلما تأملت شخصية محمد مجردة ، زاد ايمانى بأن الخصـــومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها فى الحقيقة وجود وان الدين الحق لا يتعارض والعلم والحق » .

بل ان الدين والعـلم شيء واحد كلاهمـا يطلب نور الله ويريد وجهه وكلاهما يعى ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ، ووحدة قوانينه ، ودلالة وحدة الوجود على وحدة الخالق .

***

الحديث النبوى فى كتابات الحكيم :

بقيت نقطة لا اظن ان مثل هـذا الحديث يكون وافيا من دونها وهى أن الحكيم كان إكثر كتابنا الأوائل جميعـا استشهادا بالحديث النبوى الشريف ومعـانى القرآن الكريم فى كتاباته ... حقيقة ربما لم ننتبه اليها من قبل فى الدراسات الأكاديمية ، وربما لا نفهمها تماما الا بعد تأمل طويل .

***

سر حكمة توفيق الحكيم :

واحب ان انقل للقارىء هنا ما كتبته فى الفصل الأول من كتابى « من بين سطور حياتنا الأدبية » عن سر حكمة توفيق الحكيم :

« قد يكون من أسرار حكمة الأستاذ توفيق الحكيم انه كان ولم تكن فى اعتزازه بنفسه تلك الصفات التى قد ينظر اليها على انها عيوب بارزة ، كالتى كانت فى زميليه الكبيرين طه حسين وعباس العقاد ، وخير ما يصور لك هذه المسألة هو ما رواه الأستاذ يوسف السباعى من ذكرياته حين إخذ يبحث عمن يقدم له روايته الأولى ، قال الأستاذ السباعى انه خشى ان يكتب احدهما المقدمة عن نفسه ، وان يكتب الآخر المقدمة فى نصف حجم الرواية ذاتها .. ولهذا كان الأستاذ الحكيم هو الذى قدم له .

ولكن الذى لاشك فيه ان ذلك كان نتيجة تطبع من الأستاذ الحكيم اكثر منه طبعا فيه ، والأستاذ انيس منصور فيما بعد وفاة العقاد وطه حسين بزمن طويل كتب يقول انه جمع بين الثلاثة على خط تليفونى واحد (بمساعدة عامل التليفون فى أخبار اليوم) بحيث يسمع بعضهم بعضا وهم يتحدثون عن بعضهم بآراء صريحة ، وكان الحكيم يرى نفسه انه القمة بين الثلاثة ، لانه يمثل الابداع .. مع اعترافه بالدورين

الكبيرين لزميليه الكبيرين ، وفى مقال طويل نشره الأستاذ صلاح منتصر فى الأهرام منذ شهور واتخذ له عنوانا « قالت لى نوتة الحكيم » ما يتفق وهذا المعنى .

توفيق الحكيم يتطبع :

اذن فتوفيق الحكيم يتطبع ، وهو فى تطبعه إحيانا ما يصقل شخصيته نحو القيم العليا ولكنه فى نفس الوقت كثيرا ما يطبعها بما يسعد الناس (كتابا عنه او قراء له) أن يعرفوه عنه وأن يصفوه به .. واستطيع أن أقول أنه كان أكرم من عرفت من الأدباء وقد شرفت بمعرفة كثيرين جدا ولكنه كان يتصنع البخل (*) وأنه كان أكثر الناس اهتماما بالسياسة الوطنية وأمورها ، فى كل عهودها ولكنه تصنع أنه لا يهتم أبدا وكان على نحو ما فصل (فى ذلك) القول (البحث) الأستاذ صلاح عبد الصبور فى كتابه « ماذا يبقى من هؤلاء ؟ » الوحيد بين أدبائنا الكبار الذى لم ينضم للأحزاب أبدا وظن الناس لعهد طويل أن ليس لرجل الفن أو (راهب الفكر) بالسياسة علاقة ، حتى فزعوا حين وجدوه فى عودة الوعى يكتب فى السياسة فيكتب فى صراحة شديدة

(*) فصلنا هذه المسألة فى الباب الأول من هذا الكتاب الذى كتب بالطبع بعد هذا الفصل الذى نشر ضمن كتاب من بين سطور حياتنا الأدبية عام ١٩٨٤ .

وقوية ثم جاء كتابه « الحمير » فكان خير مثال للرمز الصارح لا الواضح فحسب ، وحسب الناس أنها نزوة ، واخطأ كثيرون حين جعلوه عنصرا من عناصر حملة مع انه لم يكن أبدا عنصرا وفات علينا جميعا إن المسألة لى تكن الا كما قال زهير : ومهما يكن عند امرىء من خليقة .. وان خالها تخفى على الناس تعلم .

واستقر فى الاذهان أنه عدو المرأة على حين ظل الرجل دائما علاى خلاف ذلك : عطف بالغ وحنان ابلغ ، والذين أتيح لهم أن يعرفوه فى حياته الاجتماعية او فى حياته الخاصة عن بعد قريب نوعا ما يستطيعون ان يأكدوا للناس أنه لم يكن ابدا ذلك العدو .

وغير هذا كثير .. انما يعنينا من هذا كله أنه كان من الذكاء بحيث لا يضيع وقته ولا جهده فى نفى ما أذيع عنه وان آذاه فى قرارة نفسه ولكنه كان يستطيع دائما ان يكبح نفسه وان يلتقط الخيط من هذه الخيوط فيرسم به حول شخصيته وصورتها عند الناس أبعادا جديدة وان يكيف من هذه الأبعاد ما يضيف به الى مجده، وفى هذا النوع من التطبع الظاهرى نجح توفيق الحكيم بنفس القدر الذى نجح فيه فى تطويع الأحداث للشخصيات ، والشخصيات للأفكار ، والأفكار للنزعاتفى ادبه ذى المستوى الرفيع .

***

الحكيم ينجو :

ثم ان الأستاذ توفيق الحكيم نجا من ذلك الخلق الذى قد يصيب المرء اذا طالت إستاذيته وامتد به الزمن فى التدريس ، حين ينشأ فى عقليته نوع من الخمول الذهنى الذى يكون من أسبابه أنه دائما يعيد ما قال ، وأنه كثيرا ما يبدأ من الأول ، لأن تلامذته جداد جدا عليه .. وهنا ينشأ التكرار أو الاطناب أو التبسيط حين لا يكون له داع ، والتمثيل الذى يكون مختلا اذا ما حاولت النظر اليه لأكثر من دقيقة ، وصحيح أن الانسان لابد أن يكرر فى كثير من الأحيان ولكن توفيق الحكيم على كل حال نجا من هذا الخلق .. ولا نطلق القول ، فقد جاء زمن أصاب الجمهور فيه قدر عظيم جدا من الغباء امتد حتى أثر على أقلام كتابهم الكبار ، وانعكس على قلم الحكيم نفسه فأخذ يفتح كتبه القديمة ، يؤشر على عبارات منها قالها منذ أربعين عاما ، ولايزال لها داعيها ورونقها فى هذه الأيام بأكثر مما كان لها يومها ثم اذا هو ينشرها على الناس مرة أخرى .

***

النجاة من العجلة :

وكذلك نجا الأستاذ توفيق الحكيم من خلق العجلة تدفعه اليه المقالات الموقوته المسلسلة ينتظرها

الناس ، وقد يتصـــور البعض انه لم ينل بسبب ذلك ما ينـــاله الذين يصنعون الأحـــداث ، ويصوغون الآراء فى وقتها ، وهذا قد يكون صحيحا الى حد ما ، ولكن الأستاذ توفيق الحكيم كان يفضل النار الهادئة ، ولهذا كان زاده الذى ترك للناس فى اغلب أحواله دسم ، ولكنه مع ذلك غير عسير الهضم .

***

طبيعية الصـــورة :

كان الأستاذ توفيق الحكيم يسخر ذات مرة من هؤلاء المصورين الذين يأتون اليه ، ويقولون له : ابتسم او حرك وجهك هـــكذا حتى تكون الصورة طبيعية .. وكان يقول لى : كيف تكون طبيعية بعد ما وجهوا هـــذا التوجيه ؟؟ ولكن من أسرار عظمة إدب توفيق الحكيم انه وجه ما شاء الله له ان يوجه ولكن احدا من قرائه ولا نقاده قال عنه يوما ما قاله هو عن مصوريه .

***

الفن ألا يظهر الفن :

قد يكون فى هذا دلالة على صـــدق قولهم أن الفن الا يظهر الفن ولكننا لا نستطيع أن نقول ان توفيق الحكيم كان كذلك ، فقد كان فنه فى كثير من الأحيان يظهر الفن لكن على النحو الذى يظهره على أنه طبيعة أو مصادفـــة

أو محض تفكير عابر .. وهـذه الخصلة قد لا ترضى كثيرين من الذين تعبوا فى انتاجهم وصـوغه او الذين يعتزون بأقلامهم وقدراتهم ، ولكن الذين كان من طبعهم الفن الأصيل لا يجدون حرجا ابدا أن ينزلوا عن معنى الابداع وحقوقه ، من اجل ان تتركز الأنظار على الابداع نفسه .. وقد يطلق النقاد على هـذه الخصلة اسـما من اسماء معانى التواضع .. ولكن الأحرى أن نجعلها من التطبيقات العملية لخلق التطبع .

***

الفكر السياسى :

كانت لتوفيق الحكيم إفكار سياسية نافذة منذ مرحلة مبكرة من حياته ولم يكن توفيق الحكيم عليـه رحمة الله من انصار الآراء السائدة وانما كان بما حباه الله من عقل صاحب قدرة على النفاذية الى الحقائق ، وبما حباه من ثقافة واسعة صاحب قدرة على البحث عن الوجوه الأخرى للحقيقة .

ربما سبب هـذا للحكيم بعض المتاعب او معظم المتاعب ولا ننسى أنه كان فى السنين الأخيرة من حياتـه يحظى بأوصاف يصعب على الناس اضفاؤها على رجل له ماضيه مثل توفيق الحكيم .. ولم يكن ذنبه فى هـذا الا أنه حاول ابداء بعض الآراء مهما يكن تقبل الناس لها .

الليبرالية تتعرض لنقد الحكيم :

ومن الطف ما يمكن استعراض بعض الآراء السياسية المبكرة لتوفيق الحكيم والتى كتبها فى فترة الليبرالية التى اعقبت الحرب العالمية .. من هذه الآراء نستعرض لقارئنا آراءه التى وردت فى كتابه « عصا الحكيم » .. فهذه العصا تضغط على زر يوصلها بأناس من العالم الآخر أو العالم الحاضر .. وهى تتصل الآن بهتلر وتسأله هل أنت مت حقا ؟ أم انك حى مختبىء فى مكان ما ... ويجيب هتلر بأنه حى مختبىء .. تتلهف العصا على الاجابة فيقول هتلر انه مختبىء فى قلب كل المانى على وجه الأرض ..

ولكن توفيق الحكيم يعود الى الواقع ويسأل هتلر : جثة من التى وجدت فى قبور دار المستشارية فى برلين ، ويجيب هتلر انها جثته .

وهكذا تتضح لنا انعكاسات فلسفية الحكيم فى مثل هذه الحوارات (المسرحية » الممتازة فهو لا يبتعد عن الواقع الا ليقرر الحقائق العميقة فقط .

ثم ان هتلر يسترسل : كل ما اردت هو ان اترك لاعدائى جثتى .. إما الروح فهى التى لن يأخذوها ابدا ، وهى على الرغم منهم باقية ابدا ... وهى عندما خرجت من جثمانى دخلت فكرة فى نفس كل المانى .

الحكم وهتلر :

يتعمق الحكيم فى الحوار بعد ذلك ليسال هتلر ان كان مجرما ، ويجيب هتلر ، نعم انى مجرم فقد اخلصت لبلادى حتى الموت ، وهــذه فى نظر الانجليز اكبر جريمة يقترفها رجل غير انجليزى (لاحظ هنا الروح المصريــة عند توفيــق الحــكيم وان كنت عن نفســـها بالروح الألمــانية .. أو بما هو غير انجليزى » .

ويستأنف الحكيم حواره : ألم يبلغك ما قاله عنك تشرشل انك كنت تحب شخصك أكثر من حبك لبلادك ، وانك جمعت انت واعوانك فى المصارف اموالا تقــدر بالمــلايين .

هنا يأبى الحكيم الا أن يبرىء هتلو (وهى بداية تعاطفه فى هــذا الحوار مع هتلر وفكرة هتلر » : لقد عثروا على جثتى ، وكان أيسر من ذلك ان يعثروا على شلن واحد من هــذه الملايين المكدســة فىالمصــارف ولكنك لا تعرف تشرشل .

***

هتلر وزعمــاء الحلفاء :

يستفز الحكيم هتلر فيقول اعرف انه هو الذى قادك الى الهزيمة فيجيب الزعيم الألمــانى :

هــل تظن كذلك .. ان الــذى أعرفـــه هو أن « ستالين » قاد الجيوشوان «وروزفلت » قامبالتموين.. اما تشرشل فكان البهلوان الذى يصيح ويثرثر .

ويعقب الحكيم على لسان نفسه ان : تشرشل كان يلعب دور النبى الديمقراطى بطل ميثاق الاطلنطى .

ويردف هتلر فى حواره بعد سطور ان تشرشــل ليس الا مصنع اكاذيب متحرك وهــذا الذى فى فمــه « اى السيجار » هو مدخنة المصنع .

***

ايفـــــا :

لا ينسى الحـكيم فى هــذا الحوار أن يتحدث عن ايفا ، وهى عند الحكيم : على لســان هتلر — زوجــة مخلصة حتى الممات ، رفضت المجد وفضلت الانزواء .. لم تستغل صلتها بهتلر لمصلحتها الشخصية ..

فقد كانت أعظم نفســا وارفع شـــعورا واصــدق عاطفة واعمق اخلاصا .. وقد فهمت ان رسالتها هى ان تكون بجواره فى ساعات الضعف والوحدة والوحشة المظلمة .. لا ان تتألق للناس فى ساعات المرح وساحات النصر وحلبات الرقص .

وعلى لسان هتلر يدافع الحكيم عن اثارة هتلر للحرب « فعندما تكون المسألة بالنسبة لأمة مسألة حياة او موت فلابد من المقامرة بكل شيء » اما انجلترا فلا تدخل ابدا فى ميدان اللعب الا وفى كمها أوراق مغشوشة .. ويدور الجدل بين هتلر والحكيم حول أصول المغامرة السياسية ، والفروق بين الانجليز والألمان فيها الى أن يقول الحكيم :

لا تنكر ان الانجليز فى هذه الحرب الأخيرة قامروا هم إيضا بكل ما لهم وحياتهم .. ويرد هتلر .. لا يا سيدى انهم قامروا بكل حياة الفرنسيين ، وبكل ما فى جيوب الأمريكان .

***

مستقبل العالم بعد الحرب الثانية :

وفى النهاية يبلغ الحكيم الذروة حين يدير على لسان هتلر رأيه فى المستقبل :

« لقد خسرت المانيا الحرب ، لأنها كانت وحيدة، وسيخسر الحلفاء السلام .. لأنهم عديدون » .

هل حقا حدث هذا .. هذا هو السؤال الذى تنبىء اجابته عن عبقريته الحكيم الفنان .

***

سياسى الى النهايــة :

على هذا النحو يمكن لنا ان نقرأ « الحكيم » فى أعماله الأدبية جميعا فهو « سياسى » من البداية الى النهاية ، لأن السياسة عنده اعظم من ان تكون مقتصرة على هذه الممارسات التى يشاهدها يوما بعد يوم ، انمـا السياسة عنده هى فن بناء الحضارة .

كان الحكيم يقرأ الصحف الفرنسية كل يوم ، وكان ملما بكل ما يجرى فى هذه البلاد التى عاش فيهـا حياته مرتين : فى العشرينات وفى الخمسينات والتى كان يسافر اليها كلمـا أمكنه ذلك فى الصيف ، وكان الحكيم عندما ينتابه اليأس من الممارســة السياسية فى مصر يحاول أن يجد السعادة فى الممارسة السياسية التى فى فرنســا او فى غيرها من الدول المتقدمة .

وبالاضافة الى هذا كله كان الحكيم صاحب رؤية تقدمية فى عالم السياسة تتعدى الديمقراطية الشائعـة الآن الى ديمقراطية أخرى أصــدق جوهرا واكثر تعبيرا عن حقائق الحياة والعلم والمستقبل .

***

الحزبيـــة :

لم يعرف توفيق الحكيم ــ كما ذكرنا ــ بالحزبيــة ابدا ، ولم ينضم الى الحزبية ابدا ، وفى اللحظات التى

وصلت الحزبية فيها الى أمجد لحظاتها كان توفيق الحكيم يسخر من الديمقراطية المريضة ، وكان فى هذا يتجاوز كل سعادات المراقبين الى استشراقات المفكرين الصادقين مع أنفسهم حين كان ينبغى لنا أن نجد فى هذه الحقبة المبكرة من حياة الليبرالية المصرية من ينبه الى خطورة سيطرة الوسيلة على الجوهر ، وضياع الفائدة تماما بين ثنايا الفرحة بالمظهر الديمقراطى للعبة السياسية ولهذا كان توفيق الحكيم يكتب هذه المقالات الممتازة التى ضمنها فيما بعد كتابه « شجرة الحكم » والتى صور فيها حوار المراهنات « اشارة الى سراهنات أحمد ماهر » والمقتنيات الثمينة « اشارة الى حرص محمد محمود خليل رئيس مجلس الشورى على اقتناء التحف .. » ... الخ فى حوارات مسرحية ممتازة ... ثم كان المقال الأشهر الذى أوذى بسببه كثيرا .. ولكنه كان المقال الذى صنع أول مجده كمفكر وطنى اخترق بعقله الناضج حجب الواقعية من أجل مستقبل بلاده .

***

فى مجلس الشورى :

عندما أعلن عن تشكيل مجلس الشورى وضم التشكيل اسم توفيق الحكيم اتصل به أولو الأمر ، وحضرت الموقف الذى كان الأستاذ ثروت أباظة يهنئه

فيه بهذا الاختيار .. كانت خلاصـــة راى الحكيم يومها انه لن يكون قادرا على حضور جلسات المجلس لو سارت على نحو ما تسير عليه جلســات مجلس الشعب .. « ولكنه مستعد لحضورها لو كانت على نحو متباعد فى الوقت ، يتيح فسحة لدراسة القضايا المعروضـــة وتأملها على نحو أرحب واعمق » ربما كان من الضرورى ذكر مثل هذه الواقعـــة التى حدثت قبل ان يستبين للناس طبيعة عمل هــذا المجلس ، والله على ما اقول شهيد لنبين أن هذا الرجل كان (حتى بعد الثمانين) حريصا على المشاركة التى يستطيعها فى اى مجــال يمكن أن يحقق خدمة أو تقدما لبلاده العزيزة عليه .

***

الحريـــة المتجـــددة :

هذا وقد كان الحكيم من أكثر الناس سعادة بجو الحرية التى شهدته مصر فى السنوات الأخيرة ، وكان الحكيم كذلك من اكثر الناس اشفاقا من المستقبل وعلى المستقبل ...

وقد كان قبيل سبتمبر ١٩٨١ متوجسا اشــد التوجس مما حدث بالفعل .

كان الحكيم من اكثر النـــاس معانـــاة مما تفعله الصحف (الأجنبية خاصة) فى الأحاديث التى تنشرها

على لسان الشخصيات المصرية .. وبلغ به الأمر أنه كان يدلى برده على الأحاديث كتابة « ويحتفظ بصورة مما تحدث به .. ربما ليرضى ضميره حين لم يكن هناك من يعقب عليه .. ومع هذا كان الحكيم يحدث القريبين منه أنه مستاء من هذا المستوى الذى وصل اليه تأويل الأحاديث .. ولم يكن يطمئنه فى هذا الصدد فى عصر أنور السادات الا أن السادات شخصيا كان لا يهتم بالتفاصيل التى تنسب الى أعلام الكتاب من أمثال الحكيم وانما يهتم بالخط العام فى علاقتهم به وبسياساته.. ولو لم يكن مثل هذا الشعور موجودا عند الحكيم لزاد قلقه من الممارسات الصحفية فى عصر الانفتاح الى حد خطر .. ربما كان يجعله يتوقف تماما عن ابداء أى رأى !!

***

الباب الثالث

توفيق الحكيم أديبا

توفيق الحكيم أديبا

كان الحكيم مثقفا عريض الثقافة ، واسع الأفق ، كان أكثر أدبائنا الكبار جميعا إلماما بالفنون التشكيلية ، والموسيقى ، وكان يعتقد اعتقادا يقينيا إنه لا يتأتى للفنان أو الأديب قدر (معتبر) من الذوق والثقافة ونضج الأسلوب اذا لم يكن له باع طويل فى فهم الموسيقى والفن التشكيلى .

وقد تأثر برؤية الحكيم هذه كثير من الأدباء البارزين فى الجيل التالى له — سواء اعترفوا بذلك أم لم يعترفوا — ولكن مبلغ النضج عند هؤلاء حتى ان كتبوا فى الموسيقى نفسها لم يبلغ مبلغ نضج الحكيم الذى لم يكتب مباشرة فى هذه المعانى .

يقتضينا الأنصاف أن نذكر أن اثنين من جيل توفيق الحكيم متعهما الله بالصحة والعافية ، ربما فاقاه فى هذه الناحية ولكنهما فى كتاباتها كانا يحتاجان قدرا ارفع من الثقافة يكون عند القارىء لهما . وهما يحيى حقى وحسين فوزى ، وتتطلب قراءة الأخير بالذات قدرا ارفع من زميليه .. هنا يبرز تفوق الحكيم رغم تفوق معاصريه من حيث كان أقرب الى الجمهور كله ، لأنه كان إقرب الى الجوهر فى كتاباته من التفاصيل الدقيقة .

لم يجد الحكيم حرجا حتى آخر يوم من أيام حياته فى أن يتعلم وأن يضيف الى علمه وأفكاره ومعلوماته ، وأن يجدد فى وسائل مخاطبته للناس ، الخاصة منهم والعامـة .

شـباب مع الفن :

اتيحت لتوفيق الحكيم فرصـة مبكرة للاحتـكاك بأهل الفن والأدب .. وقد أفاد الحكيم بلاشك من هذه الفرصـة ثم اذا هو فى باريس إمام « النور » كله فلم لا يستفيد منه ؟

نظلم انفسـنا حين نقول ان توفيق الحـكيم ترك ما بعثه له والده من دراسـة القانون لتتويج دراسـته بالدكتوراه وانتبه الى الفن .. قول ممجوج نكرره من

دون أن ننتبه الى تناقضـــه مع دعوتنا الى البعد عن عبادة الشهادات ...

اليس الأولى أن نقول فى صراحة ان توفيق الحكيم حقق آمال والده أضعافا مضاعفة حين انصرف يدرس الحضارة كلها لا القانون فحسب ، وحين حقق فى هذا المجال ما لم يحققه مصرى قبله ولا بعده من دراســة عميقة متأنية فيها القراءة نهارا والمشاهدة ليلا ..

ولكن ما هو الدليل على هذا القـدر الرفيـع من الثقافة الرفيعة الذى حققه توفيق الحكيم ؟ .. سؤال يحتاج الى اجابة (مصرية) بحجم الشهادات وقدرها .

ولكن الأولى هو أن نسأل انفسنا فى صراحــة هل كان من الممكن للحكيم من دون ثقافة رفيعة أن يكتب كل ما كتب بهذا العمق والوضوح .. عمق الفكرة ، ووضوح الرؤية وبكل سلاسة وسهولة ويسر ؟؟

***

التراث الشعبى والتراث الروحى :

تشبع توفيق الحكيم بتراث شعبى وروحى كبير أتاح له التفرد فى أعماله التى قدمها للناس على مدى ستين عاما ، وكان توفيق الحكيم رغم ثقافته الأوربيـــة الممتازة منتبها الى الحضارة الاسلامية بصفة خاصـــة ،

وربما تناسى الناس اليوم ما فعله من (تلخيص) تفسير القرطبى للقرآن الكريم ، وربما تناسوا ما فى تقديمه لهذا التلخيص من فكر اسلامى عميق وممتاز .. ولتوفيق الحكيم مجموعة رائعة من الاسلاميات ربما لن تلقى التقدير العميق لما فيها من فكر اسلامى ممتاز وثقافة اسلامية واعية وفهم عميق للتاريخ الاسلامى الا بعد أن تبلغ دراساتنا الأدبية فى المجال الاسلامى أو (أسلمة العلوم الأدبية) قدرا من النضج ربما لن يكون متاحا لها قبل مطالع القرن الحادى والعشرين .

***

التواصل مع المجتمع :

لم ينفصل توفيق الحكيم وهو الأديب الكبير صاحب البرج العاجى ابدا عن المجتمع وقضاياه وقد ظل الى آخر أيامه يعبر عن المشكلات الطارئة والقائمة فى ثنايا أعماله بذكاء وفن شديدين ، وعلى الرغم من انه لم يكن أبدا من طائفة الكتاب الذين يحكون للناس كل يوم مشكلاتهم الشخصية التى يخصصون لها (أو يشغلون بها) المساحات المتاحة لهم .. فان توفيق الحكيم كان يحكى للناس كل ما فى حياته من دون أن يزعم أحد انه قصد الى ذلك .. وربما كانت طريقة توفيق الحكيم فى هذا هى اقرب

الطـرق واصعبهـا الى الجمـع بين الصـدقين الفنى والواقعى .

***

من نفس المستوى :

نجح توفيق الحكيم فى ان يكتب للنـاس دومـا فلا يتعـالى عليهم ، ولا على الواقع ، وانما هو يتأمله ويتدبره ويعيد تأمله وتدبره حتى يخرج الواقع للناس فى صورة أخرى غير التى هى (واقعة) فعلا .. ربما كان هذا هو الفن .. وربما كان هـذا هو الفكر .. وربما كان هذا هو الابداع . ولكن الذى لاشك فيه ان الناس لم تكن تتلقى نتاج هـذا الرجل العظيم من الفكر الا على أنه صورة ارقى ما تكون من صـور الامتاع : الروحى والنفسى ، الامتاع الذى لا سبيل اليه الا بالذوبان فى الفكر وهكذا فعل توفيق الحكيم عليه رحمة الله .

***

النجاة من العمالة :

اسـتطاع توفيق الحكيم أن يكون ابرز الأدبـاء والصحفيين الذين نجوا من (العمالة) بمعناها الواسـع فلم يكن توفيق الحكيم فى يوم من الأيام من انصار فكرة او جماعة معينة ، وانما كان من انصـار إفكاره حتى

ولو كانت هـذه الأفكار متوافقـة مع الراى السـائد يومها .. ولهذا كان الحكيم متجاوبا فى السنوات الأخيرة مع فكرة السلام ، ولهذا كان الحكيم قبل هـذا ايضـا متجاوبا مع روح الحقبة الناصرية . ولكن عن اقتنـاع شديد .. ولكن توفيق الحكيم نجا تماما من « العمالة » (بمعناها الواسع كما قلنا) فلم نعرف ابدا انه جامل من أجل صداقة او طمعا فى مغنم او خوفـا من مغرم .. وربما كان هذا هو سر الاحترام الشديد الذى كان فى نفوس جميع من عرفوه له ولمبادئه . وربما كان هـذا هو السبب فى أن توفيق الحكيم عاش فقيرا (أو بخيلا ! الى النهاية .. ولو لم تكن هناك روح التكافل الاجتماعى والتقدير المعنوى — أو بقايا منها فى مصر — لربما كان توفيق الحكيم قد عانى اشـد المعاناه فى حياته ولحظاته الأخيرة التى استمرت سنوات .

***

السياسـة الثقافية :

كان توفيـق الحـكيم من اكثر الأدبـاء اهتمـاما بالسياسة الثقافية لبلاده .. وبادارة الحركة الثقافية فيها ، ومنذ أعوام ليست بالبعيدة أعد الحكيم تقريرا على أرفع مستوى للنهوض بالمسرح المصرى وعرضه على لجنة من أعظم اهل ثقافتنا ذكرا ، ولقى الحكيم تقـديرهم لأفكاره التى رأى بعضها النور بالفعل .

وحين كانت صحافتنا قد اخذت تهيء الاذهـان لوقف بعض المجلات الثقافيـة متعللة فى هـذا بعدم توزيع هذه المجلات لعدد كبير من النسخ كان الحكيم يبدى عجبا شديدا من هذا الفكر ، وقد بادرنى بالحديث فيه على النحو التالى :

هل رأيت فى بلاد الدنيا أن القطار (او الطائرة) لا يقوم فى موعده المحـدد اذا لم يكن فيه كفايتـه من الركاب ؟ هـل يؤجلونه حتى يأتى العدد المناسـب ؟ ويضحون بمصالح الناس الذين جاءوه وركبوه فى موعده؟ هل يلغون القطـار رقم كذا القائم فى موعد كذا ... ولم أكن اعرف حقيقة مقصـده من هذا السؤال .. ولكنى فى فرح الشباب بمعلوماته عقبت بالقول ان هذا موجود الى حد ما فى مصر ، فاندهش الرجل اندهاشا شـديدا وقـال افهم ان يكون ذلك نتيجـة إعطـال أو اصلاحات أما ان يكون من اجـل اسـتقدام ركـاب فلماذا ؟؟ فأخذت افصـل له القول فى طبيعة عمـل سيارات البيجو التى تقوم بنقل الركاب بين أقاليمنـا (متأثرا بالطبـع بسفرياتى المتصلة فى تلك الأيـام الى الزقـازيق) ...

تنهد الحكيم بعد هذا الحديث وقال :

اذن فقد وجدت أصلا لمـا يفعلون فى شأن المجلات

الثقافية .. والمسرحيات الكلاسيكية التى تعرض على المسرح القومى .

***

السيرة الذاتيــة :

لم يكتب توفيق الحكيم سيرته الذاتية فى كتاب واحد على نحو ما فعل طه حسين أو احمد أمين ، ولكنه اســتطاع أن يستغل حياتــه (التى لم تحفل بكثير من الأحداث الصعبة أو الصعوبات المتجددة ...) فى أكثر من عمل أدبى .

ومن الطريف ان ناشرا لبنانيــا وضــع ذات مرة عنوان (حياتى) على واحد من كتب توفيق الحكيم التى تناولت فترة من عمره المبارك ، ولم يكن من الصعب أن يتقبل القارىء الكتاب هــذا العنوان بديلا عن العنوان الأصلى « سجن العمر » .

وقد قلت للأســتاذ توفيــق الحكيم فى تخــابث مقصود ان كتابه « حيــاتى » فيه كذا وكذا .. جــاء هذا عرضا فى أثناء حديث عن قضية فرعية .. فاذا به يتساءل :

وهل يجوز أن اسمى كتابى حياتى .. وأحمد أمين قد سبق الى هذا العنوان ، انما هو سجن العمر فعل به الناشر هذا الذى فعل .

واضح اذن ان توفيق الحكيم لم يكن حين استغل حياته فى أكثر من كتاب بخيلا وانما هو حريص على الا يكرر ما سبق اليه زملاؤه او زميله احمد امين بالدرجة الأولى .

ثم هو قد كتب (.. قبل ان تكون له حياة طويلة تستحق ان يكتب عنها كتابا فى السير الذاتية) . بعض وقائع من حياته فى عمل مثل « عصفور من الشرق » .

لماذا اذن لا يكمل الحكيم الخط الذى بدأه — من دون قصد فيكتب عن المراحل المختلفة كتبا مختلفة .

ربما كان هذا هو جوهر الفكرة فى كتابات الحكيم التى جعلت سيرته الذاتية مادة خصبة لأدب عظيم وفن راق .

***

ترجمة الآداب الأجنبية :

ربما خلت مؤلفات توفيق الحكيم من الترجمة رغم كل ما فى الترجمة من تنوير .. هل كان توفيق الحكيم يؤثر البعد عن هذه العملية (الصعبة المملة التى قد تستهلك وقته ليوفر هذا الوقت للابداع .. لينتج اعمالا تحمل اسمه فى المقام الأول لا فى المقام الثانى (أو الأول مكرر لو كان فى الترجمة ابداع واضح) ... ربما تكون الاجابة على هذا النحو

مقنعة ، ولكن الذين عرفوا الأستاذ توفيق الحكيم حق المعرفة قد لايوافقون على هـذه الاجابـة .. فقد كان الحكيم رائدا من رواد التأصيل الفكرى الحقيقى الذين يعنون كل العناية بالبحث فى انفسهم عما يواجهون به الواقع قبل ان يبحثوا عن العقاقير .

ولهذا كان الحكيم كثير الاستشهاد .. ولكنه لم يكن أيضا من الذين يزعمون أن فى وسعه الاستغناء عن كل ما هو خارج اطار حضارته .

ثم هو مع هذين الخلقين الذى وازن بينهما على خير ما يكون قادر على أن يتصـدى بالتجارب الجديدة لكل الأحداث الطارئة على خير ما يكون .

***

كيف دخل الحكيم الحياة الادبية ؟ :

حين اخرج توفيق الحـكيم مسرحيـة « أهـل الكهف » الى الجمهور المحدود فى منتصف الثلاثينات واجه موقفا طريفا .

فها هو قد طبع المسرحية ، واذا به امام اعداد من المسرحية لا يدرى ماذا يفعل بها .. ولم يكن يومهـا مقيما فى القاهرة ولا مستوظفا فيها (اذن فهو قد كان

من أدباء الاقاليم كما يحلو لنا إن نسمى اليوم الأدباء من خارج القاهرة حيث تصعب المجاملات والشللية القاتلة ...) .

واذا هو يتجه الى عيادة صديقه الدكتور محمد كامل حسين التى لاتزال قائمة فى شارع صبرى ابو علم بالقرب من المطبعة التى طبع فيها كتابه فيحفظ فى حجرة من حجراتها الواسعة هذا المؤلف العظيم .

ربما كان لهذه الواقعة بالذات اثر فى توطيد صداقتى بالحكيم .. فقد كان يسعد جدا بكل ما هو من طرف كامل حسين ، ثم هو سعيد أكثر لانى كتبت عن رجل لم أره ، وكان الحكيم يسعد بالكتابة التى لا تتأثر بالرؤية المباشرة لشخص صاحب الفكر .. ربما من كثرة ما جاءه من نقاد . ودارسين من العالم اجمع .. وما كرروه على سمعه من الأسئلة المتشابهة .

ولكن توفيق الحكيم يوزع « جوهرته » أو يوزع صورا من جوهرته على كبار المثقفين فاذا هو يلقى من التقدير أقدارا متعاظمة .

يفتح الصحيفة فى الصباح فيجد طه حسين يثنى الثناء كله على ما فعل توفيق الحكيم .. وفى صباح آخر يجد أستاذ الفلسفة الاسلامية (الذى اصبح فيما بعد شيخا للجامع الأزهر) يتحدث حديثا كله تقدير وتقييم صادق .

هل كان فى وسع المجتمع المصرى فى ١٩٨٥ مثلا (اقصد منتصف الثمانيات) أن يستقبل تجربة مثل تجربة توفيق الحكيم بمثل ما استقبلها به سنة ١٩٣٥ (أى منذ نصف قرن ..) أم لا ؟

أغلب الظن أن لا .. فلاشك ان الانصاف يقتضينا أن نذكر الى جانب عبقرية توفيق الحكيم عبقرية المجتمع الذى عاش فيه توفيق الحكيم .. حتى وان سجل الحكيم نفسه معايب هذا المجتمع او مآخذه عليه فى أعماله ، فقد كان يبغى الاصلاح ، .. من ناحية اخرى فقد كانت أمام الحكيم فرصة ليكتب ما كتب وليلقى ما استحق من تقدير بفضل وجود طائفة من المستنيرين على أعلى المستويات بين النقاد (طه حسين) وأساتذة الجامعة بل وعلماء الدين انفسهم (الشيخ مصطفى عبد الرازق) .. وليس هذا تقليلا من قدر توفيق الحكيم .. ولكنه معنى كان الحكيم نفسه يحرص على التنبيه اليه .

***

مسرح الحكيم :

ربما كان أقل تقدير يوصف به مسرح الحكيم هو الريادة ، فبعض الذين يحبون أن يكتفوا بالنظر الى الأدب فى ضوء المذاهب التى درسوها لا يجدون صعوبة فى

انتقاد كثير من الجزئيات فى مسرح الحكيم .. ولكنهم مع ذلك يقفون بعد هذا كله أمام هرم شامخ لايستطيعون أن يتجاهلوا قدره حتى لو اكتشفوا بعض الخدوش فى واحد أو أكثر من الحجارة التى تظهر وكأنها تكون هذا الهرم .. وهم لهـذا يتداركون أنفسهم بالقول بريادة مسرح الحكيم .

***

حتى قبل أن يستقر اللفظ :

ولقد وضع الحكيم أسس المسرح العربى حتى قبل أن يستقر هـذا اللفظ للدلالة عن هذا الأدب الراقى .. ربما كان كبار النقاد لايزالون يطلقون على مثل هـذا الأدب تعبير فن التمثيل فحسـب ، حتى طه حسـين (نفسه) حين تحدث فى استقبال الحكيم فى مجمع اللغة العربية يقول :

« لأول مرة ظهر بيننا كاتب يحاول أن ينشىء فن التمثيل باللغة العربية لا يترجم ولا يقلد فيه ولا يتكلف ما كان يتكلف الكتـاب الذين يحـاولون أن ينتجوا فى التمثيل ، وانما يقبل عليه كأنما خلق له منذ خلق ، ويتصرف فيه كأنما خلق ليتصرف فيه وليكون كاتبـا ممثلا لا يظهر التكلف فى حرف من حروف هـذه القصة

ولا يظهر التعب ولا الكد فى شىء من هذه القصة وانما هى تأتى يسيرة سهلة كأنما اوحيت اليه او كأنما الهمها الهاما » . يتضح اذن من هــذه الكلمــات ان كلمــات الأدب المسرحى والمسرح ... الخ لم ترد على الاطلاق حتى الآن رغم مرور ما يقرب من عشرين عاما على ما بدا فيه توفيق الحكيم من انشاء المسرح العربى .

***

تأصيل المسرح سر نجاحه :

ربما كان سر نجاح توفيق الحكيم فى انشاء مسرح عربى إنه انشــأ المسرح من أصــول عربيــة .. أو انه استطاع الوصول الى اصول عربية يمكن انشاء مسرح على اساسها .. وببساطة شديدة فقد استطاع توفيق الحكيم فى « اهــل الكهف » أن يجمع بين تراثين هامين ببساطة واقتدار .. ففى أهل الكهف جمع الحكيم بين التراث العربى الاسلامى متمثلا فيما ذكره القرآن الكريم من شأن أهل الكهف فى الســورة التى تحمــل اســم « الكهف » .. « وبين التراجيديا الاغريقية » .

أحسن الأعمــال أولها :

ربما يصدق على « إهل الكهف » القول القائل ان احسن الأعمال هو أولها .. فقد انتبه الحكيم بفضل

كتابات من نقدوا المسرحية يومها ومن بينهم طه حسين والعقاد واحمد امين ومصطفى عبد الرازق الى عناصر القوة فى تأليفه المسرحى ، واذا هو يستلهم التاريخ بعد ذلك فى عدة مسرحيات .. فهو يستلهم التاريخ الشرقى والتراث الشرقى فى مسرحيات مثل « ايزيس » و « السلطان الحائر » و « شهرزاد » .. ثم هو يستلهم التراث الاغريقى القديم فى « بجماليون » و « أوديب » و « براكسا » .. كما يستلهم التراث الغربى المعاصر بعد ذلك فى عدد آخر من المسرحيات .

***

الاخلاص لفكرة المسرح :

هكذا ظل توفيق الحكيم مخلصا لفكرة المسرح : يعالج به المشكلات القائمة ويطرح فيه وبه رأيه فى القضايا التى تدور من حوله من دون ان ينغمس فيما انساق اليه الكثيرون من بعده تحت شعار الواقعية . التى كانت فى البدء جميلة طريفة ، ثم هى اليوم قد تكون مبتذلة الى اقصى حدود الابتذال .

نعم .. كان توفيق الحكيم يؤمن بأن الفن ينبغى أن يكون فى اطار (او فى ثوب) من الثقافة والتاريخ .. أو على اقل تقدير ينبغى أن يبتعد عن (المباشرة) فى التناول .

التجاوب مع تطلعات المجتمع :

وظهر هذا جليا كذلك فى مسرح المجتمـع الذى استطاع توفيق الحكيم من خلاله ان يجعل الأدب يتجاوب مع ثـورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .. ومع هـذا فان ترفـع توفيـق الحـكيم بمسرحياتـه فى مسرح المجتمـع « من الوقتيـة والمبـاشرة هو الذى هيـأ لهـذه الأعمـال الخـلود والقابليـة لتكرار العرض والقراءة على مدى الأيام من دون أن يستطيع اى انسان أن يزعم انه كان فى وسع الحكيم ان يكون اكثر ثورية او معاصرة .. الخ هذه الألفاظ التى بلى بها الأدب العربى النقد العربى .

***

المـــودات :

ربما كان توفيق الحكيم بعد هذا كله صاحب فضل فى (تفتيح) عيون الأجيال التالية له من المسرحيين على المستحدث (أو المودات الجديدة) فى المسرح الأوربى .. ولكن الأهم من ذلك انه كان صاحب الفضل الأول فى رسم الطريق الأمثل الى التأثر بمثل هـذه التطورات الأدبية الهامة ، وهو لهذا حين يؤلف مسرحية مثل (طالع الشجرة) لتكون باكورة انتاجه فى مسرح اللامعقول يعود

ليستلهم التراث الشعبى ، فيهديه ذكاؤه ، او تهديه ثقافته الى هذا المثل البسيط الذى يقول : « يا طالع الشجرة .. هات لك معاك بقرة .. تحلب وتسقينى بالمعقة الصينى » .

وهكذا وفى بساطة شديدة يجد المشاهد العربى (أو القارىء العربى) فى هذه المسرحية لامعقولية الشكل وقد أراحته من لامعقولية المضمون .. فلربما كان توفيق الحكيم أكثر الناس جميعا فى معقوليته لا فى مسرحياته فحسب عليه رحمة الله .

لم يكن يشاهد المسرح العربى :

بقيت نقطة أخيرة لابد من الاشارة اليها ، فقد كان الحكيم رائد المسرح من اقل المؤلفين حضورا لمسرحياته عند تمثيلها او فى تجاربها .. ولم يكن يصدر فى هذا عن كراهية لمثل هذا السلوك ، وانما لأنه كان يحكم نظام حياته اليومى لا يحب السهر ، بينما مسارحنا المصرية لا تعمل الا مع انتصاف الليل وكان الحكيم يتمنى ان يكون عندنا نفس النظام الوقتى للمسارح الأدبية التى تعود عليها .. ولكنه للأسف مات قبل أن يكون عندنا هذا الاهتمام بالبكور المسرحى .

***

ماذا نفتقد من أدب الحكيم :

ماذا نفتقد بغياب ادب الحكيم ؟ هل حقا يمكن لأحد أن يمـلأ الفراغ الذى خلفـه توفيق الحكيم ، الحقيقة انه لا احد يستطيع أن يملأ فراغ توفيق الحكيم أبدا ، ولكن الذى لاشك فيه أن توفيق الحكيم لم يترك فراغا فى الأدب العربى لأنه تولى بنفسه استكمال كثير من الأوجـه والأشـكال التى يلزم لرقى هـذا الأدب وحداثته وجودها فيه .. فهو اذن قد قام بدور هـام فى انشاء وترقية الأشكال الأدبية الجديدة والمستحدثة ، وفى استثارة الناس حول معان وافكار جديدة ، وبوضـع أقدام الأدباء على مناح مختلفة لمعالجات مستحدثة .. ربما لا يستطيع واحد منا أن يزيد انتاج توفيق الحكيم فيؤلف كتابا أو مسرحية يضاف الى رصيد الحكيم .. ولكن الذى لاشك فيه أن كثيرا من الأعمال الأدبيـة منذ نصف قرن لاتزاح متأثرة بتوفيق الحكيم وهى امتداد له بالطبع .

***

أكثر الأدبـاء ليبرالية :

هل يستطيع احدنا بعد هـذا ان يزعم انـه أكثر ليبرالية فى الفن والأدب من توفيق الحكيم .. هـذا هو جوهر الاجابة على السؤال الذى قد يتداعى لواحد من

الجيل القادم بعد ثلاثين عاما حين يدرس الأدب وتاريخه فيجد توفيق الحكيم لامعا طيلة هـذه الفترة كلها .
لأنه ببساطة شديدة كان ينمو مع الزمن ويزداد نضجـا وتفتحا مع الزمن .. وهـذا هو المفروض فى الكائنات الحية .. ولكن كثيرا من المفكرين يأبون على انفسهم ان يظلوا بروح الكائنات الحية ، ويصنعون لأنفسهم منذ مرحلة مبكرة هيكل مومائيا يحتفظون بأنفسهم فيه ..
على النقيض التام من هؤلاء كان توفيق الحكيم الذى لم يفتأ يجدد فى انتاجه وفى اسـلوبه حتى آخر لحظة من (الوقت الضائع) فى حياته رحمة الله .

الباب الرابع

الآثار الأدبية لتوفيق الحكيم

الآثار الأدبية لتوفيق الحكيم

لمسة روحانيـــة :

لم يكن الأستاذ الحكيم حين رتب مؤلفاته يخضـــع الترتيب الزمنى ، وانما كانت عنده لمسة روحانية تجعله يقدم كتابه عن النبى صلى الله عليه وسلم (محمد) على كتبه جمعا ، رغم إنه خامس هــذه المؤلفات من حيث الصدور . . . ملاحظة لابد لنا إن نسجلها قبل ان نتحدث عن أعمال الحكيم التى يجدها القارىء مرتبـــة زمنيا على خير ما يكون .

***

قائمـــة المؤلفات :

كان توفيق الحكيم حريصا فى كل كتبه على ان يورد قائمة بمؤلفاته يتبعها بقائمة اخرى بالترجمـــات التى

نشرت لبعض هذه المؤلفات ، وكان الحكيم ربما بحكم طبيعته الحريصة على التأكد ، وربما بحكم الخبرة (فى منصب مدير دار الكتب) حريصا على أن يوفر لناقده أو دارسه هذه القائمة مع كل كتاب كأنه يكفيه عناء البحث عن التعريف بمؤلفات توفيق الحكيم .

ولابد ان نذكر ايضا أن توفيق الحكيم كان كثيرا ما يهمل ذكر بعض الكتب التى حملت اسمه والتى لم تكن الا تجميعا لرسائل أو مقالات صحفية ... الخ .

***

يسهل اذن علينا ان نعرف بمؤلفات توفيق الحكيم معتمدين على القائمة الجميلة التى نظمها بنفسه — رحمة الله عليه — فى صدر واحد من آخر كتبه وهو كتابه التعادلية والاسلام والتعادلية .

***

الأعمال المجمعة :

ينبغى لنا فى البداية ان ننتبه الى أن مجموعة كبيرة من الأعمال المسرحية التى تتداولها الألسنة والأقلام منسوبة الى توفيق الحكيم صدرت فى عملين أو مؤلفين فقط — هما مسرح المجتمع (الذى صدر عام ١٩٥٠) والمسرح المنوع (الذى صدر عام ١٩٥٦ أى بعد ٦ سنوات

من السفر الأول) ... يضم كل هذين المؤلفين ٢١ مسرحية تتفاوت فى تاريخ كتابتها منذ العشرينيات وحتى صدور هذين المؤلفين .

***

مسرح المجتمع :

فأما مسرح المجتمع فقد نهج الحكيم فى ترتيب مسرحياته نهجا منظما جدا فهو يجعل للمسرحية مصدرا ، ويسمى هذا المعنى من وحى ... وهكذا تجد : من وحى أخلاق المجتمع ، من وحى الطبائع البشرية ، من وحى الحركة النسوية ، من وحى الحياة الزوجية ... الخ) . بحيث يسهل على الباحث عن مسرحية معينة (فى سرعة) ان يجد المسرحية التى قد تناسب المقام .. كما يحدث فى بعض الأحيان فى اختيار النصوص المسرحية للعروض الجامعية .

ثم هو يردف هذا « المن وحى » باسم المسرحية ثم يعرف بالمسرحية ذكرا عدد فصولها مثلا .. على النحو التالى :

من وحى اخلاق المجتمع (بين يوم وليلة): قصة تمثيلية فى منظرين .. الخ .

***

المسرح المنـوع :

اما المسرح المنوع فقد اكتفى الحكيم فى فهرستـه وترتيبه بذكر تواريخ كتابة هـذه المسرحيات ، وعـدد فصولها ، وربما كانت اشهر هذه الأعمال : رصاصـة فى القلب (وهى فى الأصل مسرحية من ثلاثة فصول) والأيدى الناعمة (وهى من اربعة فصول) .

وفى هـذا (المسرح المنـوع) انمـاط عديـدة من مسرحيات الحكيم التى راد فيها قومه وادباءهم الى آفاق جديدة للفكر المسرحى والأدب المسرحى .

***

هل نشر كل مسرحياته ؟ :

ربما يجعلنا هذا نطرح سؤالا : هل نشر الحكيم (فى كتب) كل مسرحياته التى نشرها من قبل فى الصحف والدوريات . سؤال قد يجد الجواب بالايجـاب ، حين يلاحظ الدارس تفاوت تواريخ تأليف ٢٢ مسرحية يضمها المسرح المنوع مما قد يدفع الى اصـدار حكم بان الحكيم حرص على تجميع كل هذه المسرحيات فى كتـاب ولكن الحقيقـة ربما تكون على خـلاف ذلك تماما .. وهـو ما لا يمكن الجزم به الا بعد صدور دراسة ببليوجرافيـة ممتازة كتلك التى يعدها الأستاذ الدكتور سعد العجرسى فى مجلة عالم الكتاب أو التى يقدمها الدكتور حمدى

السكوت فى الجامعة الأمريكية عن أعلام أدبنا المعاصر ..
وربما تكون هذه الدراسة مقدمة لدراسة اخرى تعطينا
فكرة عن تقدير الحكيم لأعمال المسرحية .. ولأعماله
غير المسرحية أيضا .

***

خلود الأعمال الأولى وشهرتها :

ربما يصدق القول القائل بأن ابرز اعمال الحكيم
حتى اليوم هى اعمال السنوات الأولى ، وهى من باب
التصنيف ٣ روايات و ٣ مسرحيات .

فأما المسرحيات .. فهى أهل الكهف (١٩٣٣)
وشهرزاد (١٩٣٤) والسيرة الحوارية (محمد)
(١٩٣٦) .

اما الروايات فهى عودة الروح (١٩٣٣) ويوميات
نائب فى الأرياف (١٩٣٧) وعصفور من الشرق (١٩٣٨).

وربما كان (التقديم الفنى) أو (التناول) لهذه
الأعمال ذا دلالة قوية على خصوبة فكر الحكيم ..
فالجمهور يرى عودة الروح التى هى فى الأصل (رواية)
يراها مسرحية تقوم ببطولتها نعيمة وصفى .. ويرى
يوميات نائب فى الأرياف وقد تحولت كثير من أجزائها
الى أعمال تمثيلية .. وهكذا .

***

عـــام مثمـــر :

ثم ان المطابع فى عام ١٩٣٨ وهو العام الذى شهد صدور « عصور من الشرق » اخرجت للحكيم اربعـــة مطبوعات اخرى ربما لم تحظ بنفس القدر من الشهرة وذيوع الصيت .

من هـــذه المؤلفات الأربعة رواية (اشعب) وهى رواية ممتازة بلاشـــك ولكنها لم تحظ بذات القدر من شهرة الروايات الثلاث السابقة عليها .

ومن هذه المؤلفات (عهد الشيطان) وهى مجموعة قصص قصيرة وربما كان لها نصيب من الشهرة يفوق نصيبها لو صـــدرت قبل عشر سنوات لتوفيق الحكيم نفســـه .

أما أن يصدرها رائد المسرحية باعتراف العمالقة فأمر قـــد يجعل النقاد العرب (مهما كانوا اصـــدقاء) يترددون فى الاطراء على فنان واحد منشىء فى مجالين فى أقل من عشر سنوات !!

وهناك بالاضافة الى هذين العملين مجموعتان من المقالات نشرهما الحكيم تحت عنوانين مختلفين « تحت شمس الفكر » و « حمارى قال لى » .

***

كتب المقـالات :

سنلاحظ هنا أن الحكيم كان دائما ما يجمع مقالاته (المنشورة فى فترات متقاربة) تحت عنوان واحد فى كتاب واحد ، ويصــدره للناس .. هكذا كان يفعل اترابه ، من امثال طه حسين ، والعقاد ، واحمد امين .. ولكن كان الحكيم أكثر تفننا فى اختيار عنوان الكتب ، وفى جعلها ذات عناوين مختلفة مما يوحى بتنوع المقاصــد واللباب . على خلاف احمد امين الذى جعل معظم مقالاته فى سلسلة من الكتب المتوالية هى فيض الخاطر ١ ، ٢ ، ٣ ... الخ .

وعلى خلاف العقاد (أيضا) الذى سلك مســلكا وسطا بين الحكيم واحمد امين حين عبر عن نفسه صراحة فى مقدمة كتابه « بين الكتب والناس » فقال : ان هــذه المجموعة من المقالات شبيهة بالمجاميع السابقة ومنهــا « الفصول » ، مطالعات على خلاف العقاد فان توفيق الحـكيم ترك كل هــذه التقدمات والتجميعات وعرض القارىء مقالاته كما نشرت وان اختلف الترتيب .

هل كان الحكيم اكثر ذكاء .. هل كان أقل دقة ، هل كان الفن فى طبعه متغلبا على التوثيق .. إسئلة تحتاج الى دراسة ومقارنة لا الى مجرد حكم عاجل أو متعجل .

***

ســبعة مجموعــات :

هل لنا أن نسرد للقارىء بعد هذا عناوين الكتب أصــدرها الحــكيم والتى كانت فى الأصــل مجموعة من المقالات لها تواريخ صدور هذه الكتب . قد يكون هــذا مفيدا فى حد ذاته ، ومع هــذا فهو يعطينــا فكرة عن (الفجوات) الزمنية بين هذه (التجميعات) لأعمــال توفيق الحكيم :

١ ــ تحت شمس الفكر ١٩٣٨

٢ ــ حمارى قال لى ١٩٣٨

٣ ــ من البرج العاجى ١٩٤١

٤ ــ تحت المصباح الأخضر ١٩٤٢

٥ ــ زهرة العمر ــ (سيرة ذاتية رسائل) ١٩٤٣

٦ ــ شجرة الحــكم ١٩٤٥

(فى السنوات الأخيرة أعاد الحكيم اصدار هــذه المجموعة من المقــالات تحت عنوان « شــجرة الحــكم السياسى فى مصر ») .

٧ ــ فن الأدب ١٩٥٢

أوصـــاف أخـــرى :

وهناك بعد هذا مجموعات أخرى لم يشأ الحكيم أن يعطيها وصف مقالات وانما اعطاها أوصاف أخرى نذكرها قرين كل منها كما ذكرها هو .

٨ – تأملات فى السياسة (فكر)	١٩٥٤
٩ – التعادليـــة (فكر)	١٩٥٥
١٠– سجن العمر (ذكريات)	١٩٦٤
١١– رحلة بين عصرين (ذكريات)	١٩٧٢
١٢– عود الوعى (ذكريات سياسية)	١٩٧٤
١٣– فى طريق عـودة الوعى (ذكريـات سياسية)	١٩٧٥

ها أنت ترى الحكيم فى هـذه المرحلة (١٩٥٤ – ١٩٥٧) يعطى أعماله الفكرية (الخارجه عن اطار الأشكال الفنية التى اشتهر بها) اســماء تترأوح بين الفـكر والذكريات والذكريات السياسية .

ثم اذا هو يعود الى وصف هـذه الكتب المجمعـة بالمقـالات .

١٤– بين الفكر والفن	١٩٧٦
١٥– أدب الحيـاة	١٩٧٦
١٦– تحديات سنة ٢٠٠٠	١٩٨٠

وفى عام ١٩٨٣ يصدر الحكيم كتابه الأخير التعادلية والاسلام والتعادلية تحت باب الفكر ايضا .

***

فهذه اذن ١٧ عملا من أعمال الحكيم تخرج عن الأشكال الفنية يمكن لنا ان نضيف اليها ٤ أعمال أخرى هى :

حمار الحكيم (حوار)	١٩٤٠
عصا الحكيم (مقالات حوارية)	١٩٥٤
حديث مع الكواكب (حوار فلسفى)	١٩٧٤
ملامح داخلية (حوار مع المؤلف)	١٩٨٢

فتصبح لدينا قائمة بواحد وعشرين عملا للحكيم لا هى بمسرحية ولا برواية ولا بقصة ولا بمجموعة قصص . وانما هى كما عبر هو مجموعة مقالات ، او فكر أو ذكريات ومن بين هذه الأعمال نجد ثلاثة أعمال يتناول فيها الحكيم سيرته الذاتية هى :

- زهرة العمر .
- سجن العمر .
- رحلة بين عصرين .

وليست السيرة الذاتية لتوفيق الحكيم فى هذه

الأعمال فحسب ، ولكنها متوزعة ومنتشرة ايضا فى اعمال اخرى كما يعرف القرار جميعا مثل عصفور من الشرق ، عدالة وفن ، ويوميات نائب فى الأرياف ، وعودة الروح ايضـــا .

واحد وعشرون كتابا من مؤلفات الحكيم لا تتخـذ الأشكال الفنية التقليدية .. ولكنها تخطى عند النــاس بما تخطى به مسرحياته ورواياته ومجموعات قصصه .

***

حياته من كتبـه :

ربما يجوز لنا ان نستطرد هنا لنروى عن توفيق الحكيم نفسه عليه رحمه الله انه كان سعيدا بتناول أعماله على النحو الذى كان يجيده الناقد الأستاذ محمد السيد شوشـة لأعماله حيث كان يربط بينها جميعا راويـا قصة حياة الحكيم من دون ان يكلف الحكيم عناء الحوار معه عن فترات معينـة . كان الحكيم يقول عن هـذا الناقد الكبير انه يفهم أعماله وحياته ولا يتعبه كثيرا كما انه لا يحمله فوق طاقته من الاعتراف ، اذ تظهر هـذه السيرة التى كتبها شوشـة على انها اجتهاد منه وهو أمر كان يسعد الحكيم جدا أو على الأقل لم يكن يوقعه فى حرج أو ضيق .

***

ومازلنا مع الأعمال « النثرية » لتوفيق الحكيم فاذا بنا نجد انفسنا أمام سؤال مهم حول دور توفيق الحكيم فى النقد وبخاصة بعد أن قرأنا ضمن مؤلفاته اسم كتابين هما مجموعة من المقالات فى الواقع ، ولكنهما ينبئان عن مذهب أو فكرة نقدية وهما بالتحديد .

— فن الأدب (مقالات) الذى صدر عام ١٩٥٣

— بين الفكر والفن (مقالات) الذىصدر عام ١٩٧٦

والحقيقة أن هـذين الكتابين لا يمثلان كل جهـد توفيق الحكيم فى فن الأدب والفن وانمـا هما يجمعان عددا من المقالات فى هذا الشأن .

وربما يكون هذا هو المقام المناسب للاشـارة الى دراسة الحكيم التى إسماها « قالبنا المسرحى » التى صدرت عام ١٩٦٧ فبهذه تكتمل الفـكرة عن مذهب الحكيم وآراء الحكيم القيمة فى هذا المجـال ، وبالطبع فلا يجوز لنا أن ننسى أن كتابه « التعادلية » هو التعبير عن مذهبه فى الحياة والفن كما كتب هو نفسه .

***

تفســير القرطبى :

تكتمل لدينـا حتى الآن قائمة بكتب أدبية للحكيم (ليست من الأشكال الأدبية التى هى الرواية أو القصة

او المسرحية) (تبلغ الأعمال الروائية والقصصية كما سيأتى ١٣ مؤلفا .. والأعمال المسرحية ٢٤ مؤلفا) .. وهناك عملان سنتحدث عنهما بعد الرواية والمسرح قد ينتميان الى الشعر .. ما هو العمل الذى ينتمى الى الأعمال غير الشعرية وغير الروائية وغير المسرحية ؟ انه تلخيص تفسير القرطبى الذى اسماه الحكيم مختار تفسير القرطبى (١٩٧٧) وهو عمل عظيم يحتاج الى جهد حقيقى فى دراسة فلسفة الحكيم فى التلخيص الاختيار والمواءمة والفهم الدينى العميق .. لا مجرد النظر الى جهده فى هذا المجال على انه عمل تلخيصى فحسب .. هذا عمل رجل قارب الثمانين (فى ١٩٧٧ كان الحكيم قد اقترب كثيرا من الثمانين) وقد نشره على الناس ولم يجد صدى كثيرا لما فعل فهل حرام على مثله المفكرين أن يقتربوا من مثل هذا المحيط ؟

***

مسرح الحكيم :

ها نحن ننتهى من الأعمال النثرية لتوفيق الحكيم من سيرة ذاتية وذكريات سياسية وحوارات .. ومقالات ودراسة لنصل الى اللب .. الى جوهر أدب الحكيم رائد المسرح العربى ، فنجد قائمة طويلة من المسرحيات التى فاقت بعضها ، يحتار المرء كيف يقدمها

القارىء فلا يجد خيرا من الترتيب الزمنى كما فعل الحكيم نفسه (باستثناء واحد حين قدم كتابه عن محمد السيرة الحوارية على كل مؤلفاته مسرحيات وغير مسرحيات) .

هذه المسرحيات هى أساس مسرحنا المعاصر بكل مذاهبه ، وهى معلم من معالم نهضة مصر لا المسرحية ولا الثقافية فحسب ، ولكن النهضة الحضارية كلها ، أو فلنقل النهضة على الاطلاق .

ولنقرأ معا أسماء تدل على ثقافات عميقة ومعالجات ذكية :

١ ــ أهل الكهف	١٩٣٣
٢ ــ شهرزاد	١٩٣٤
٣ ــ محمد	١٩٣٦
٤ ــ براكسا (أو مشكلة الحكم)	١٩٣٩
٥ ــ بجماليون	١٩٤١
٦ ــ سليمان الحكيم	١٩٤٣
٧ ــ أوديب	١٩٤٩
٨ ــ الأيدى الناعمة	١٩٥٩

٩ ــ ايزيس	١٩٥٥
١٠ ــ الصفقة	١٩٥٦
١١ ــ لعبة الموت	١٩٥٧
١٢ ــ أشواك السلام	١٩٥٧
١٣ ــ رحلة الى الغد	١٩٥٧
١٤ ــ السلطان الحائر	١٩٦٠
١٥ ــ يا طالع الشجرة	١٩٦٢
١٦ ــ الطعام لكل فم	١٩٦٣
١٧ ــ شمس النهار	١٩٦٥
١٨ ــ مصير صرصار	١٩٦٦
١٩ ــ الورطة	١٩٦٦
٢٠ ــ مجلس العدل	١٩٧٢
٢١ ــ الدنيا رواية هزلية	١٩٧٤
٢٢ ــ الحمير	١٩٧٥

هذا بالاضافة الى المجموعتين الكبيرتين

٢٣ ــ مسرح المجتمع	١٩٥٠
٢٤ ــ المسرح المنوع	١٩٥٦

يمكن لنا اذن ان نقول ان مجموع مؤلفات الحكيم التى تندرج تحت « مسرحية » ٢٤ مؤلفا .. ويمكن القول انها تحوى ثلاثا وستين مسرحيـة ... ٢١ كل واحدة منها فى كتاب منفصـل و ٢١ فى مسرح المجتمع و ٢١ فى المسرح المنوع وواحدة طبعت مرة فى كتـاب وطبعت ايضـا ضمن المسرح المنوع .. وهى الأيـدى الناعمة .

٦٣ مسرحية هى — على الأقل — المتاح إمامنـا من تراث رائد المسرح (هذا بالاضافة الى أعماله الأولى من امثال : الضيف الثقيل) .

راجع الآن ما تعمدنا تقديمه من تفصيل القول فى مسرحيات مسرح . المجتمع والمسرح المنوع .

***

روايـات الحـكيم :

ونأتى الى روايات توفيـق الحـكيم فنجدها على على الترتيب (الزمنى) :

١ — عـودة الروح ١٩٣٣

٢ — يوميات نائب فى الأرياف ١٩٣٧

٣ — عصفور من الشرق ١٩٣٨

٤ ــ أشعب ١٩٣٨

٥ ــ راقصة المعبد (رواية قصيرة) ١٩٣٩

٦ ــ الرباط المقدس ١٩٤٤

٧ ــ بنك القلق (رواية مسرحية) ١٩٧٦

وهكذا نجد الحكيم ينصرف تماما عن الرواية منذ ١٩٤٤ لماذا هذا هو السؤال الذى ينبغى أن تتولى الاجابة عنه رسائل متعددة للدكتوراة .. وللماجستير .

ثم أين يمكن تصنيف بنك القلق ؟؟ هل هى رواية أو مسرحية ... سؤال يحتاج شيئا من الفهم العميق للمعنى الذى أراده الحكيم حين وصفها فى عام ١٩٧٦ وقد بلغ ما بلغ بأنها « رواية مسرحية » .. وهو يحتاج كذلك الى فهم المقصود بالتعبير الجديد « المسرواية » .

***

ونأتى الى القصص :

١ ــ عهد الشيطان (قصص قصيرة) ١٩٣٨

٢ ــ سلطان الظلام (قصص) ١٩٤١

٣ ــ عدالة وفن (قصص) ١٩٥٣

٤ ــ ارنى الله (قصص قصيرة) ١٩٥٣

٥ ــ ليلة الزفــاف (قصة)	١٩٦٦
٦ ــ ثورة الشباب (قصة)	١٩٧٥

***

لمــاذا انصرف عن الرواية :

هل يمكن لنا أن نزعم أن الحكيم كان فى البداية أميل الى القصص القصيرة ؟ لمــاذا انصرف الحكيم عن الرواية وركز على المسرح ؟

لمــاذا ظل الحــكيم تواقا الى كتابة القصــة حتى ١٩٧٥ ؟ والرواية المسرحية (١٩٧٦) .

أسئلة تحتاج فى ظنى الى تقييم دور النقد الأدبى فى حياتنا الأدبية وأثره على اعمال كبار الكتاب واتجاهاتهم فى التأليف والأعمال الأدبية .

***

نأتى بعد هذا الى عملين متميزين من اعمال الحكيم ثانيهما « شعر » هو رحلة الربيع والخريف ، وقد صدر عام ١٩٦٤ وهو أمر يحتــاج الى دراســة وعرض نقد وتقييم لانزعم اننا قادرين على شيء منها ها هنا .

وأولهما كان « نشيد الانشاد » الذى أصدره الحكيم (١٩٤٠) وجعل تعليقه عليه « كما فى التوراة » .

هذان العملان قد يحتاجان دراسة أدبية لعناصر لعناصر الابداع الفنى عند رجل مسرحى من الطراز الأول، وقد تثير الدراسة تساؤلات حول موقف الحكيم من المسرح الشعرى ، ومن المزج بين المسرح والشعر ، وبخاصة وقد أصبح من الواضح انه كانت عنده شبه نواة لمثل هذا العمل ، وان لم يكن الحكيم شاعرا بالفطرة ؟

دراسات كثيرة ربما تثير كثيرا من التجديد فى فهمنا لأدبنا القومى وتطوره ومستقبله وربما لا تثير .

***

الفهـــرس

رقم الايداع ٥١٢٥/٨٨

الترقيم الدولى ١ ـ ١٨٦٢ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب